الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة عباس لغرور – خنشلة –

- كلية الآداب واللغات
- قسم الأدب العربي
- شعبة:أدب عربي
- التخصص:أدب قديم

الرثاء بين المهلهل والخنساء

– دراسة موضوعاتية –

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي تخصص أدب قديم

– من إعداد الطالب:

وادة إسلام

– تحت إشراف الأستاذة:

د. حورية رواق

أعضاء لجنة المنـــاقشة

اللقب والاسم	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
د. كمال طاهير	أستاذ محاضر (ب)	عباس لغرور – خنشلة–	رئيسا
د. حورية رواق	أستاذ محاضر (أ)	عباس لغرور – خنشلة–	مشرفا ومقررا
د. هند بوعود	أستاذ مساعد (أ)	عباس لغرور – خنشلة–	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2014 – 2015

شكر وعرفان

لايفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى صاحبة الفضل بعد سبحانه وتعالى، المشرفة على هذه الدراسة الدكتورة: حورية رواق التي تابعت هذا البحث منذ كان برعما إلى غاية استقامته وتمامه،- على الأقل شكلا لأن الكمال الحقيقي لايملك بشر الوصول إليه – فجزاها الله خيرا على نصائحها الثمينة وإرشاداتها القيمة ومساندتها.

كما لايفوتني أن أتقدم بالشكر لكل من ساعدني في إخراج هذا البحث إلى النور في كل من جامعة عباس لغرور، ومكتبة المركز الثقافي من أساتذة وعمال وطلبة .... جزاهم الله خيرا وجعل كل ذلك في ميزان حسناتهم.

الإهداء

*إلى أبي سندي في الحياة، وصاحب الفضل فيما أنا عليه اليوم بفضل توجيهه وإرشاده لي ودعمي بأي طريقة يمكن أن يدعم بها أب ابنه.

*إلى رمز التضحية والفداء أمي الحنون التي انتظرت طويلا كي تراانا نكبر و نحصد، فتحملت عناء تربيتنا، وتكويننا، وناضلت من أجلنا حفظها الله ورعاها، وجزاها خيرا، وجعلها تقطف أحسن الثمار.

*إلى أخي وأُختاي وكل فرد في عائلتي الكبيرة .

*إلى كل أصدقائي وزملائي وأساتذة اللغة والأدب العربي بجامعة الحاج .

أهدي ثمرة هذا العمل

إسلام

مقدمة

مقدمة:

أثَّر الشعر العربي القديم تأثيرا بالغا في الشعرية العربية القديمة منها والمعاصرة، إذ مازالت قصائد القدماء تشغل قريحة النقاد والأدباء بالدراسة والمعارضات، فقد تفنن المصنفون في تقصي تاريخ الشعر، وتتبعوا مراحله عبر العصور من أجل استجلاء خصائص البيئات التي ظهر فيها باعتبار الزمن والبيئة من العوامل التي تؤثر في هذا المنتوج الثقافي فتدبروا أغراضه ومعانيه، وحاولوا الكشف عما يمكن أن يدرك فيها من سمات الفرد والجماعة، كاستنطاق الرموز التي تفصح عن أعماق الذات باعتبارها الوظيفة الأساسية التي يمكن لها أن تخبر عن مكنون اللاوعي الجماعي، وتفصح عن خبايا المعاني ومكوناتها، حتى فصل هؤلاء المصنفون في أغراضه وقضاياه أيما تفصيل، ويعتبر الرثاء أبرز هذه الأغراض وأكثرها تداولا على لسان الشعراء خاصة في الجاهلية.

ولعل من أبرز الشعراء الذين وضعوا بصمتهم على هذا الغرض، **المهلهل بن ربيعة** الذي يعتبر أول من بكى وأول من قال شعرا في الرثاء، و**الخنساء** التي يتوافق أسلوبها مع أسلوب **المهلهل**، وهي تعتبر أشعر شواعر العرب وقد تفوقت حتى على بعض فحول الشعراء، فكل من جاء بعدها من شعراء نظموا في الرثاء قد اغترفوا جميعا من شعرها الفياض بالعواطف الإنسانية.

وربما يسأل سائل: لماذا هذا العنوان << الرثاء بين المهلهل والخنساء - دراسة موضوعاتية - >> ؟

فنقول: كان اختيارنا هذا العنوان لأسباب ذاتية وأسباب موضوعية، أما الأسباب الذاتية فهي:

- ميلنا للموضوع ورغبتنا البحث فيه والتعمق أكثر في دراسة وتحليل الموضوع من مختلف جوانبه فيما يتعلق بغرض الرثاء، ومن جهة أخرى التعرف أكثر على هاتين الشخصيتين البارزتين في الشعر، **المهلهل والخنساء** ، وذلك انطلاقا من الإطلاع على أشعارهما.

- أن هذا الموضوع مشوق، ويبث الفضول في نفس كل من يقرأ هذا العنوان إلى حمل المذكرة والإطلاع عليها حتى وإن لم يكن من أهل الاختصاص، وذلك

يرجع إلى أن **المهلهل** و**الخنساء** شخصيتان معروفتان لدى العام والخاص، وعليه فقد أردنا إنجاز مذكرة توضع على رفوف المكتبة لتحمل وتقرأ، لا لتلقى جانبا فتهترىء ويكسوها الغبار.

وأما بالنسبة للأسباب الموضوعية فهي:

- كون الرثاء أحد أبرز الأغراض الشعرية في العصر الجاهلي وأكثرها اتساعا وشمولا وتداولا على ألسنة الشعراء.

- الوقوف على الأسرار التي جعلت أدب **المهلهل** وأدب **الخنساء** أدبين رثائيين حماسيين يصوران الحياة الجاهلية والبيئة التي عاشوا فيها تصويرا دقيقا يحمل الكثير من المعاني التي تثير العاطفة و الحمية في نفس الإنسان.

- قلة الدراسات التحليلية لشعر **المهلهل** ولشعر **الخنساء.**

- إبراز فعالية المنهج التحليلي الجمالي في دراسة الخطاب الشعري القديم.

- الإسهام في تدعيم الدراسات الموضوعاتية ذات التوجه التطبيقي.

أما أسباب إنجاز المذكرة هي :

لعل أهم سبب دفع بنا إلى إنجاز المذكرة نلخصه في الحديث الآتي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم :**<< إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له.>> رواه مسلم .[1]

- تبادل الأفكار والمعارف والخبرات، وتحقيق الإفادة والاستفادة من خلال فتح مجال النقاش والحوار، ويمكن أن نذكر في السياق نفسه الحكمة الرائعة لـــــ: **برنارد شو** الذي يقول فيها:" لو كان لديك تفاحة ولدي تفاحة مثلها وتبادلناهما فيما بيننا سيبقى لدى كل واحد منا تفاحة واحدة، لكن لو كان لديك فكرة ولدي فكرة وتبادلنا هذه الأفكار فعندها كل منا ستكون لديه فكرتان"، ففي النهاية هذا هو الهدف الأول والأساسي من البحث العلمي.

[1]– الزووي (أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي)، رياض الصالحين،(د.ط)، دار المعارف،(د.ت)، ص 370.

- الحصول على شهادة ماستر في الأدب العربي.

لقد كانت قصائد **المهلهل** وأشعار **الخنساء** ، خلاصة لنظرة الأخ، ونظرة الأخت، إلى الأخ الكريم الشجاع، وقد أبدع الشاعر والشاعرة في هذه القصائد وأفرغا فيها كل طاقاتهما الفنية.

ويهدف البحث إلى الإجابة عن الإشكاليتين التاليتين:

- ماهي مظاهر الرثاء وتجلياته في الشعر الجاهلي؟

- وماهي خصائص الرثاء عند **المهلهل** وعند **الخنساء** انطلاقا من الموازنة بين أشعارهما؟

وللإجابة على الإشكاليتان المطروحتان، وحتى تكون دراستنا منظمة ومتسلسلة للموضوع اعتمدنا على الخطة الآتية:

مقدمة يتلوها مدخل معنون بـــ: الرثاء في الشعر الجاهلي.

أما الفصل الأول فقد عنوناه كالآتي: مظاهر وتجليات الرثاء في الشعر الجاهلي.

وقد تخللته أربع عناوين فرعية وهي:

1- تعريف الرثاء لغة واصطلاحا، 2- نظرة الشاعر الجاهلي لقضية الموت والمصير، 3 - موضوعات الرثاء، 4 - خصائص الرثاء.

وبخصوص الفصل الثاني الذي كان عنوانه: الرثاء بين **المهلهل و الخنساء**- دراسة موضوعاتية- وقد تضمن خمس عناوين فرعية وهي :

1- التعريف **بالمهلهل بن ربيعة،** **2**- الرثاء عند **المهلهل بن ربيعة،** **3**- التعريف **بالخنساء** ، 4- الرثاء عند **الخنساء،** **5**- موازنة بين **المهلهل بن ربيعة** و**الخنساء** في غرض الرثاء (موضوعاتيا).

وأخيرا خاتمة تتضمن أهم النتائج المتوصل إليها.

وحتى تكون الخطة ناجحة كان من الضروري اختيار المنهج المناسب لها، فاتبعنا المنهج التحليلي الجمالي بصفته من المناهج التي تستطيع فك الكثير من الرموز والإشارات في النص الشعري.

وقد اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها:

ديوان المهلهل بن ربيعة شرحه: طلال حرب، ديوان الخنساء، الرثاء لشوقي ضيف، شعر الجاهلية وشعراؤها لقصي الحسين، العصر الجاهلي لشوقي ضيف، الكامل للمبرد، الأدب الجاهلي لسامي يوسف أبو زبد، الفروسية في الشعر الجاهلي لحمودي نوري القيسي.

وككل بحث علمي، فإن بحثنا لم يخل من الصعوبات والعراقيل لعل أبرزها:

- شح المراجع التي تناولت شعر **المهلهل** وشعر **الخنساء** بالدراسة والتحليل، فقد كانت أغلبها تتكلم عن **كليب** ومكانته عند **المهلهل**، وعن **صخر** ومكانته عند **الخنساء**، لذا فقد كان كل ذلك تأريخا لعلاقة **المهلهل بكليب**، و**الخنساء بصخر** ، ولم يكن تحليلا موضوعاتيا وفنيا لأشعارهما في أخويهما.

- صعوبة تأويل بعض المعطيات اللغوية التي استخرجت من القصائد والنماذج الشعرية.

- ندرة المراجع المختصة في التحليل الموضوعاتي الجمالي، إذ كنا نقرأ كتابا كاملا لنعثر في النهاية على إشارة بسيطة لعنصر من العناصر وفي البعض الآخر لا نعثر في النهاية على أي شيء.

وعلى الرغم من هذا وذاك تمكنا بفضل الله وعونه من تذليل الكثير من الصعوبات والعراقيل التي واجهتنا.

وبعد هذا كله نقول أيضا أن هذه الدراسة قد اعتمدت كل الاعتماد على النص الشعري، وعلى طاقة اللغة الشعرية وإمكانياتها الفنية والجمالية والإبداعية، ولا تزعم هذه الدراسة لنفسها القدرة على استنفاذ القضايا أو الظواهر التي تتعلق بلغة الشعر عند **المهلهل بن ربيعة والخنساء**، ولكنها تأمل أن تكون مدخلا لدراسة أكثر تفصيلا وأعمق تناولا، وأرحب سعة من هذه الدراسة.

وفي الأخير نعتذر عن كل خطأ أو سهو صدر منا، فإن أصبنا فبتوفيق من الله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان، والله من وراء القصد.

مدخل:

الرثاء في الشعر الجاهلي

مدخل: الرثاء في الشعر الجاهلي

أطلق المؤرخون على الفترة الزمنية التي سبقت الإسلام، عصر الجاهلية. وكذلك سماها القرآن الكريم، **قال تعالى (أَ فَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حَكَمًا لِقَومٍ يُوقِنُونَ)**[1]، على أن هذا لا يعني أن الجاهلية مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب.

ولعل البيت الآتي من معلقة عمرو بن كلثوم [*] يوضح لنا مفهوم الجاهلية، بأنها تعني الخفة والحمية والمفاخرة وهي أمور أوضح ما كانت في حياة العرب قبل الإسلام، فنجده يقول [2]:

أَلا لا يَجْهَلَنَّ أَحَدُ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

ولما كانت موضوعات الشعر الجاهلي عديدة و الأهداف منها متنوعة، قسم أهل الأدب محتوياته إلى أغراض مختلفة و أبرزها الغزل والنسب و المدح والرثاء والهجاء و العتاب، ومن أشهرها كذلك الفخر و الحماسة و الوصف و الاعتذار والنصيحة و الحكمة وغير ذلك مما يرمي إليه شعراء الجاهلية في تلك الأيام فالشعر العربي مثل معادن بعضها قد مزج ببعض وقد يكون بين هذه المعادن قطعة صافية من الذهب الخالص، وقطع ممزوجة بمعادن من الفضة وغيرها،

---

[1]- سورة المائدة/ آية 50

(*)- عمرو بن كلثوم بن عتاب التغلبي من سادة تغلب، وهو حفيد المهلهل، توفي نحو 600 م، وهو من أصحاب المعلقات من الطبقة السادسة من فحول الشعراء الجاهليين، ومعلقته المشهورة مطلعها (ألا هبي بصحنك فأصبحينا)/ ينظر: الجمحي ابن اسلام، طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1952، ص 27.

[2]- عمرو بن كلثوم، ديوان عمرو بن كلثوم، شرح: عبد القادر محمد مايو، ط1، دار القلم العربي، حلب- سوريا، 1999، ص79.

فعلى الجوهري أن يستخرج ما يريد من السبيكة كذلك فإننا نجد شعر العرب سبائك، فأكثره قصائد في شؤون شتى وبعضه القليل في موضوع واحد[1].

يعتبر الشعر وسيلة تعبير وأداة إبلاغ يقوم من خلالها الشاعر بترجمة مختلف عواطف النفس ونزواتها إلى كلمات، فتكون تارة زفرات حزن، يصعدها صدر هائج مهموم، وفي أحايين أخرى ابتسامات عذبة تعلو ثغرا جميلا. وربما تتسع دائرته ليعبر عن عواطف أكثر من نفس، بل قد يعبر عن عواطف أمة بأسرها. فالشاعر هو الذي يحس ويشعر بعواطفه الشخصية أو بعواطف الآخرين من حب وكره، وفرح وحزن، فيراها منعكسة على مرآة نفسه، فيبرزها إلى الخارج بطريقة تجعلنا نشعر معه بكل تلك العواطف[2].

استطاع الشاعر الجاهلي أن ينقل لنا من واقعه الذي كان يعيشه وبيئته وحياته اليومية، وعليه فإننا نجد أن " الشعر قد صاغته البداوة كلية أيضا، فإن المرء لا يستطيع أن يقول عكس ذلك، وهو أن الشعر يبلغنا حياة البدو كلية، لأن كل ما نعرفه عن البدو العرب القدامى تقريبا يرجع إلى الشعر، فهو أهم مصدر لنا عن حياة البدو العربية القديمة "[3].

وقد وصلنا الشعر الجاهلي " على هيئة منتخبات عامة، ودواوين الشعراء، ودواوين القبائل، ومجموعات لأغراض شعرية معينة، وأول هذه المجموعات المعلقات وقد ذكر ابن عبد ربه وابن رشيق وابن خلدون وغيرهم أنه قد بلغ من

---

[1]– زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة، ط2، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ص 307.

[2]– ينظر: فؤاد افرام البستاني، الشعر الجاهلي (نشأته – فنونه – صفاته)، (د.ط)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1937، ص4.

[3]– إيفالد قاجز، أسس الشعر العربي الكلاسيكي– الشعر العربي القديم – ، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008، ص63.

كلفة العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها من ماء من ذهب وعلقتها في أستار الكعبة "[1].

انطلاقا من دراستنا وبحثنا في الشعر الجاهلي، لفت انتباهنا بروز غرض الرثاء وحضوره القوي وتألقه الموضوعي والفني، بحيث أن الرثاء يشغل جانبا عظيما من الشعر الجاهلي لاتصاله اتصالا وثيقا بالحماسة، ولأنه في أكثر همصروف إلى فرسان العشيرة وساداتهم الذين لهم المآثر المحمودة. وليس هناك فرق بين الرثاء والمدح إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود ميت، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بَيِّن الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام.

وأروع ما ندب به الأبطال في حومات القتال، لأن الشعراء في بكائهم، وفي تعداد مناقب الموتى، يثيرون الأحقاد ويشحذون العزائم ، ويهجون القبيلة للحرب، ويدعون إلى الأخذ بالثأر وقد اصطبغ الرثاء بهذه الألوان حتى أصبح سنة من سننه[2].

ويعتبر الرثاء من أسبق الأغراض الشعرية وأصدقها على لسان الشعراء، لأنه تعبير صادق عن النفس الإنسانية، وتعبير عن شوق اللقاء ومرارة وحزن الفراق، فهو نابع من أعماق النفس ومعبر عن أوقات ولحظات الفراق م خاطبا الوجدان والفؤاد قبل العقل، ليجسد الانفعالات النفسية والإنسانية الناتجة عن فقدان الأحبة والأقارب، والرثاء قريب من النفس البشرية، لما يحمل من مشاعر وأحاسيس صادقة بعيدة كل البعد عن التصنع والتكلف والتقليد، الأمر الذي قد يطغى على ملامح الشخصية ويقف عائقا بينها وبين التألق والإبداع، وعلى هذا الأساس

[1]– نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ط1، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص164.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص 187.

اعتبرت المراثي الجاهلية من أجود أشعار العرب، وهذا ما يوضحه قول أعرابي عندما سئل :" ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ فقال: لأناَ نقول وأكبادنا تحترق "[1].

ونستطيع القول أن " الرثاء موضوع هام من موضوعات الشعر الجاهلي يتصل اتصالا مباشرا بالحماسة والمديح، فهو متصل بالحماسة لكثرة ما يقع في أيام العرب وحروبهم من القتل والثأر، ويسقط في المعارك كبار الرجال المفقودين الذين سقطوا، وخسرت القبيلة بهم خسارة فَقْدِ الحامي والحكيم والرئيس المسير المسدد لقومه وقت الأزمات "[2].

أما في أصل شعر الرثاء كان نياحة النواحة (الندابة)، فقد كان لكل إنسان الحق فيه بعد موته، تماما كما هي الحال بالنسبة لدفنه. وقد مضى الطريق من النياحة إلى مرثيه كاملة البناء من الناحية الشكلية مشابهة تماما لتطور الأقوال السحرية – الطقسية إلى الفخر والهجاء، وقد بدأ بمنطوقات سجع موجزة، تحولت في الرجز إلى إيقاعية. ولما لم يعد يعهد بالمرثية إلى النواحة فحسب، بل إلى الشاعر– وفي الواقع إلى الشواعر على نحو شائع للغاية، فقد امتد محيطها، واستخدمت إلى جوار الرجز أوزان أخرى أيضا[3].

الرثاء يكون وصف المرثي فيه تماما مثل وصف الحي في المديح، سواء بصفات معنوية أو خلقية، إلا أن اختلاف الرثاء عن المديح هو أن الشاعر في ذكره لتلك

[1]– الجاحظ (ابو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ط5، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985، ص 320.

[2]– محمد زغلول سلام، مدخل إلى الشعر الجاهلي، (د.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995، ص164– 165.

[3]– ينظر: إيفالد قاجز، أسس الشعر العربي الكلاسيكي – الشعر العربي القديم – ، تر : سعيد حسن بحيري ، ص 189.

الصفات يسبقها بـ (كان)، أ و بما يدل على أنه كان موصوفا بصفة ما أو بأخرى كما قال قدامة بن جعفر[1].

لقصائد الرثاء أفكار ورؤى تميزها عن غيرها من القصائد، وبلمحة سريعة على تلك القصائد نجد أنها لا *يمكن أن تخلو من الحديث عن* الموت، والميت، وما حل بأهله من بعده، ثم لقطات من موقف الشعراء من تلك المصيبة، وتكاد المراثي تشترك في تلك الأفكار التي يمكن أن نعدها مفاتيح للولوج إلى أعماق الشعراء ومواقفهم من الموت ونظرتهم إليه ومحاولتهم تفسير ذلك اللغز تارة، أو الوقوف حائرين أمام ذلك القدر المحتوم تارة أخرى.

وإذا أردنا الحديث عن جانب الموت وفكرة الخلود اتجاه الإنسان، والجدلية التي وقف عليها الشاعر القديم بين فناء ماهو مادي وخلود ماهو معنوي، فإن تناول غرض الرثاء يمكننا من استخراج تلك المعاني بصورة أوضح حول جدلية الموت والخلود، وهي الفكرة الأساسية التي يقوم عليها غرض الرثاء في الشعر العربي[2].

يطلق الموت في كلام العرب على السكون، يقال: ماتت الريح، إذا سكنت، ولا تطلق لفظة الموت إلا على الأحياء كالإنسان والحيوان والنبات.

أما الفناء فقد اختص بالجمادات وهي لفظة كثيرا ما تصادفنا عند دراسة القصائد التي قيلت في رثاء الممالك والمدن والأطلال الزائلة، فقد وقف الجاهليون أمام الموت وحاولوا دفعه إلا أنهم أيقنوا أنه لا طاقة لهم به ولهذا ومع غياب الإيمان بما وراء الموت من بعث وحساب أدركوا أن عليهم التسليم بما يتربص بهم من نوائب ومصائب نسبوها تارة إلى الدهر، وتارة إلى قوى خفية تتربص بهم، " إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى العالم الآخر، والرثاء بكاء يتعمق في القدم منذ وجد الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحزن، مصير

---

[1]– ينظر: محمد زغلول سلام، مدخل إلى الشعر الجاهلي ، ص 165.

[2]– ينظر: رعد أحمد علي الزبيدي، في الشعر الجاهلي، ط2، دار الينابيع، دمشق، (د.ت)، ص184.

الموت والفناء الذي لابد أن يصير إليه، فيصبح أثرا بعد عين، وكأن لم يكن شيئا مذكورا "[1].

وحين صوَر شعراء الرثاء الموت حاولوا تصوير موقفهم منه ثم صوروا ما ترتب عليه من عزاء واستسلام لتلك الفاجعة، كما افتخروا بوقوفهم غير مكترثين به حيث سيمضون في حياتهم متجلدين بالصبر، في حين ركن بعضهم إلى البكاء وانهارت قواهم.

إذا اعتبرناّ أن مجال الشعر هو الإنسان فقط، والإنسان والطبيعة، والإنسان والمجتمع، فعندها سيكون شعر تأمل وتدبر الحياة والموت هو المنحنى الأبرز، " ولا شك أن الموت قد أثار الشاعر العربي الأول، أو الشعراء العرب الأوائل، وكان أكبر ما أثارهم فيه هو بغتته وفجأته، فهو يقدم بينما الحياة تجري في عنفوانها وشموخها"[2].

إن المتتبع للمراثي التي خلفها شعراء العرب في مختلف العصور والأزمنة يجد اختلافا في تناول كل واحد منهم للموضوع، حيث تختلف حدة العاطفة من شاعر إلى آخر، ومن موقف إلى موقف، كما نجد تباينا في سيطرة العقل وانفلاته.

وثمة شاعر رأى الحياة كلها قبرا، فما دام أخوه قد دفن تحت التراب، واختفى عن ناظريه، فإن الثرى كله قبر له، كما أن الدنيا كلها كانت دنياه، فمن يطلع على قصائد المهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب يلتمس فيها مصداقية هذه المعاني، فأدب المهلهل أدب حرب وحماسة، وأدب عاطفة وتكرار، وأدب سهل الأسلوب والتعبير، وهذه الحماسة تضخمت في مخيلة الشعوب على مر الأيام، فكان منها أسطورة الزير أخيل العرب تلك الأسطورة الشعرية، فللمهلهل شخصيتان: واقعية

[1]- ينظر: المرجع السابق نفسه، ص184.

[2]- صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة لشعرنا القديم، ط1، منشورات إقرأ، بيروت، (د،ت)، ص35.

وأسطورية مثل عنترة، لأنه بطل حرب البسوس (*)، ساعة طلب بثأر أخيه كليب من جساس بن مرة البكري أخي الجليلة زوجة كليب[1].

"وقد ساعد على الرثاء كثرة أيامهم وما يقتل فيها من أبطال، وأهم مميزات الرثاء صدق العاطفة والتعبير عن مشاعر الأسى والحزن لفراق الإخوان "[2].

أتاحت لنا النصوص الشعرية فرصة الوقوف على الحالات النفسية التي توافي نفس الموتور وهي متنوعة ومختلفة باختلاف الأوقات وأجوائها، فنفس الموتور قلقة مأزومة وفكره مشغول بإيجاد السبل الموصلة إلى غايته المنشودة في الثأر، إلا أن هذه النفس تصب جام غضبها الكامن على القاتل لحظة الظفر به، وحين يكون القاتل تحت رحمة المطالب بالثأر ينزل به عقوبة القتل ولا تأخذه فيه رأفة أو عطف وهو هائج مائج لا تنطفيء ثورته العارمة إلا حين يرى القاتل مضرجا بدمه مكتوم الأنفاس، وبعد أن يتأكد له أن مراده قد تحقق وأن الثأر قد تم يستشعر الراحة والبهجة ويشعر معهما بكثير من الزهو والاعتداد، لأنه استطاع أن يزيح عن كاهله أوزاره الثقيلة[3].

وقد أجمع الكثير من الدارسين على براعة المرأة العربية في هذا الميدان وإجادتها فيه حتى طغى على أغراضها الشعرية الأخرى، فكان لمشاركتها في هذا الغرض إسهاما فاعلا في إثراء ديوان العرب بهذا اللون الشعري المميز، ويمكن إرجاع ذلك إلى طبيعة المرأة الوجدانية باعتبارها أكثر ميلا للحزن والبكاء عكس الرجل

(*)- هي البسوس بنت منقذ التميمي، وناقتها سراب كانت سبب اشتعال حرب دامت أربعين سنة من 494 إلى 534م بين قبيلتي تغلب و بكر./ ينظر: حمودي نوري القيسي، الأشعار الموثبات في الجاهلية، الأقلام –مجلة فكرية عامة، ج4، تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، 1994، ص 115.

[1] – ينظر: علي شلق، الشم في الشعر العربي، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1984، ص283.

[2]– سامي يوسف أبو زيد، الأدب الجاهلي، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2011، ص92.

[3]– ينظر: جليل حسن محمد، قراءات نصية في الشعر الجاهلي، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2012، ص68.

الذي فرضت عليه الأعراف الاجتماعية أن يتحلى بالصبر والتحمل، " وقد قامت المرأة بقسط كبير في البكاء، فشاركت الشعراء فيه، حتى لا نكاد نفرق بينهما في جوهر الرسالة التي يؤديانها للقبيلة بل وربما كان للنساء الحظ الأوفر منه، فكنَ يلطمن الوجوه، ويقرعن الصدور، ويشققن الجيوب، ويقمن المآتم"[1].

وقد خلد التاريخ أسماء نساء أصابتهن نوازل الدهر، وتفطرت قلوبهن على عزيز فتك به الموت، " مثل الجليلة امرأة كليب، والخنساء وغيرهن من النساء والشواعر، مما أتاح لهذا الفن الباكي والمتفجع في الشعر العربي، أن يكون غنيا بالشجي، مبللا بالدموع الملتاعة، تتوالد منه الصور الفاجعة المشبعة بالحنين والافتقاد، بعيدا في معناه، واسعا في التجربة، صادقا في النفس، يوغل عميقا في الوجدان فيجعله يهتز، وينهمر في آن"[2].

ويبقى اسم الخنساء ساطعا كالنجم يتلألأ في سماء الشعر لا يأفل ولا يذهب بريقه، كيف لا تكون كذلك وهي التي تجتمع فيها صفات عظيمة لم تجتمع لأحد من النساء والرجال، فقد جمعت المروءة والشهامة والبطولة والوفاء والإخلاص إلى جانب تفوقها في الشعر وفي الرثاء تحديدا، فقد بكت واستبكت أخويها صخر ومعاوية وهما من كانا من سادات قومهم، وقد كانت فاجعتها ولحظة التحول في حياتها هي فقدها لهما فبكتهما بكاءا مرا وإن كان صخر بدرجة أكبر، فتظهر لنا أنفاس الخنساء الحارة وحرقة قلبها على فقد أخويها، فتكون الكلمات أقدر على التعبير عن الإحساس، " قيل لها: صفي لنا أخويك صخرا ومعاوية، فقالت: كان صخر جنة الزمان الأغبر وذعاف الخميس الأحمر. وكان معاوية القائل الفاعل. قيل: فأيهما كان أسنى وأفخر؟ قالت: أما صخر فحر الشتاء وأما معاوية فبرد

[1]– نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي ، ص189.

[2]– قصي الحسين، شعر الجاهلية وشعراؤها، ط1، منشورات المكتبة الحديثة، لبنان، 2006، ص322.

الهواء. قيل: فأيهما أوجع وأفجع، قالت: أما صخر فجمد الكبد وأما معاوية فسقام الجسد "[1]. ثم أنشدت[2]:

أَسَدَانِ مُحْمرًّا المَخَالِبِ نَجْدَةً بَحْرَانِ في الزَّمَنِ الغَضُوبِ الأَنْمَرِ

قَمَرانِ في النَّادي رَفيعَا مَحْتِدٍ في المَجْدِ فَرْعَا سُؤْدُدٍ مُتَخَيَّرِ

رغم أن أغلب أبيات الرثاء نظمتها شواعر حيث استؤنف بذلك تقليد وهو أن النياحة كانت الأمر الغالب على النساء، وبرغم أن مؤلفات شعر الرثاء نسوة، فنادرا جدا ما كانت النساء في العصر الجاهلي موضوعا للرثاء، فلم يبك على الأمهات أو النساء أو البنات أو الأخوات الموتى[3].

وربما ذلك لكون العرب كانت تعي ر من يبكي من الرجال، كما يوضحه البيت التالي للمهلهل بن ربيعة بقوله[4]:

يُبْكَى عَلَينَا ولا نَبْكي على أَحَد لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الإبِلِ

لقد كان الرثاء يعتمد على الانفعال بالتجربة الإنسانية، وتصوير الإحساس بالفجيعة، لأنه ينبع من إحساس الشاعر بارتباط المرثي بالجماعة ارتباطا وثيقا، ومن شعوره بالفراغ الذي يتركه وراءه لذا فقد ارتبطت عباراته ومعانيه ارتباطا نفسيا واجتماعيا بأوضاع المجتمع الجاهلي.

---

[1]- الخنساء، ديوان الخنساء، (د.ط)، عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص82.

[2]- المصدر نفسه، ص82.

[3]- ينظر: إيفالد قاجز، أسس الشعر العربي الكلاسيكي، الشعر العربي القديم، تر: سعيد حسن بحيري، ص 191.

[4]- التبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب)، شرح ديوان الحماسة، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، 1938، ص 52.

يكاد الرثاء في كثير من الأحيان أن يكون صورة من صور الحماسة، أو مظهر من مظاهرها، لأن الشاعر يحاول أن يضفي على المرثي كل صفات البطولة، كما يحاول أن يحرض على الأخذ بثأره إذا كان الموت قتلا، ومن الجدير بالذكر أن أغلب قصائد الرثاء لم تكن رثاء قاصرا على البكاء وحده، وإنما يختلط بالتهديد، والأخذ بالثأر والفخر، إلا قصائد قليلة تتمثل في شعر النساء الذي انطلق من أفواههن فكان قصائد خالصة للرثاء[1].

وقد حفل الأدب العربي بكثير من هذه القصائد التي أطلق على بعضها اسم الموثبات، لما تثيره في نفوس القوم من حماس، وما تبعثه فيهم من إثارة فكان الحماس عنصر من عناصره وداع من دواعيه.

[1]– ينظر: حمودي نوري القيسي، الفروسية في العصر الجاهلي، ص 192.

الفصل الأول: مظاهر وتجليات الرثاء في

الشعر الجاهلي

1. تعريف الرثاء: 1-1- لغة.

1-2- اصطلاحا.

2. نظرة الشاعر الجاهلي لقضية الموت والمصير.

3. موضوعات الرثاء: 3-1- رثاء الأهل والأقارب .

3-2- رثاء النفس .

3-3- رثاء المدن والممالك.

4. خصائص الرثاء : 4-1- الندب.

4-2- التأبين.

4-3- العزاء.

1- تعريف الرثاء:

1-1- لغة:

خلال بحثنا في أصل الرثاء والمعاني اللغوية التي تنضوي تحت هذه الكلمة، وجدنا لها مجموعة من المفاهيم معتمدين في ذلك على بعض معاجم اللغة.

- جاء في لسان العرب لابن منظور: رَثَى فُلان يَرْثِيهِ رَثْيًا ومَرْثِيةً: إذا بكاه بعد موته، وقال: فإن مدحه بعد موته قيل رَثَاهُ يَرْثِيهِ تَرْثِيَةً، ورَثَيْتُ الميت رَثْيًا ورِثَاءً، ورَثَّيْتُهُ مَدَحْتُهُ بعد الموت وبكيتُهُ، ورَثَوتُ الميت أيضا إذا بكيتُهُ وعددتُ محاسنه وكذلك إذا نَظَمْتَ فيه شعرا[1].

- أما في المعجم الوسيط: رَثَاهُ، رَثْوًا، ورِثَاءً: بكاه وعدد محاسنه، رَثَى الميت رَثْيًا ورِثَاءً، ورِثَايَةً ومرثاة، ومرثية: بكاه بعد موته وعدد محاسنه، ويقال: رثاه بقصيدة، ورثاه بكلمة، الرثاية: النواحة، الرثية: الضعف والفتور، ترثاه: رثاه " وفي الحديث أنه نهى عن الترثي": ندب الميت[2].

- وجاء في كتاب العين: رثى فلان فلانا: يرثيه رثيا ومرثية أي يبكيه ويمدحه والإسم المرثية، ولا يرثي فلان لفلان، أي لا يتوجع إذا وقع مكروه وإنه ليرثي لفلان مرثية ورثيا والمترثي: المتوجع المفجوع[3].

وفي القاموس المحيط: رَثَيْتُ الميتَ رَثْيًا ورِثَاءًا ورِثَايَةً، بكسرها، ومَرْثَاةً ومَرْثِيةً، مخففة، ورَثَوتُهُ بكيتُهُ وعددتُ محاسنه، كرثيته وترثيته، ونظمت فيه شعرا،

---

[1]- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، ج1، ط1، دار صادر، بيروت، 2000م، مادة: رثا، ص 100.

[2]- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، (د.ط)، الدار الإسلامية، إسطنبول، 1983م، ص 329.

[3]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، مجلد2، ط1، 2003م، ص 97.

وحديثاعنه أرثي رِثَايَةً: ذكرتُهُ وحفظتُهُ. ورجل أَرْثَى: لا يبرم أمرا، ورَثَى له: رحمه، ورق له، وامرأة رَثَّاءَة ورَثَّايَة: نواحا[1].

1-2- اصطلاحا:

يعتبر الرثاء من أبرز الفنون، وأحد أهم الموضوعات في الشعر العربي عموما والشعر الجاهلي على وجه الخصوص لارتباطه بظاهرة الموت، والذي يعد ظاهرة إنسانية شغلت فكر الشعراء والفلاسفة والمفكرين منذ قديم الزمان.

والرثاء كما يقول بعض الباحثين[2] كان في أصله تعويذات تقال للميت وعلى قبره حتى يرتاح ويطمئن في لحده ثم تحول وتطور إلى بكاء ونواح وندب إضافة إلى تأبين الميت والإشادة بمحاسن ومكارم صفاته. وهذا ما تم التواضع عليه في مفهوم الرثاء على أنه بكاء الميت والتحسر والتفجع عليه، وذكر خلاله وخصاله والإشادة بأمجاده وأخلاقه الحميدة.

وقد عرفه شوقي ضيف بقوله" الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا فهو بكاء يتعمق في القدم منذ وجد الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحزن : مصير الموت والفناء الذي لابد أن يصير إليه فيصبح أثرا بعد عين وكأن لم يكن شيئا مذكورا."[3].

وعرف المبرد الرثاء في قوله:" الشعر في المراثي إنما يقال على الوفاء، فيقضي الشاعر بقوله حقوقا سلفت، أو على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض أهله، أما أن يقال على الرغبة فلا، لأن العرب التزموا في ذلك مذهبا واحدا، وهو

---

[1]- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، (د.ط)، دار الحديث، القاهرة، 2008، حرف الراء:ص619.

[2]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ط24، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د. ت)، ص 207.

[3]- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن الغنائي الرثاء، ط4، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص 5.

ذكر ما يدل على أن الميت قد مات فيجتمعون بين الفجع والحسرة والأسف والتلهف والاستعظام ثم – يذكرون – صفات المدح مبللة بالدموع"[1].

وعليه فالرثاء مرتبط بالموت من جهة وبغرض المدح من جهة أخرى، فهو يجمع بين البكاء على الميت وذكر مناقبه ومحاسنه. وهذا ما ذهب إليه قدامة بن جعفر بقوله:" إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على الهالك."[2].

والرثاء هو فن من فنون الشعر العربي وأشهرها وأكثرها اتساعا على اعتبار أن الموت يشمل الجميع في كل مكان وزمان، فيتم فيه ذكر الخصال والحسنات والأعمال العظيمة التي سيخلدها الدهر والتاريخ، وفي ثنايا ذلك كله يبدو الحزن ويسيطر الألم ويظهر الجزع لهذا الوقع الفادح والمصاب الجلل، وهول الكارثة لشدة الموقف واليأس وغير ذلك تبعا لقوة عاطفة الشاعر ومدى تأثره بالموقف وشدة معايشته له.

" فالرثاء هو بكاء الأموات شعرا، وهو أقرب الأغراض الشعرية جميعها إلى طبيعة الشعر لما يمثله من أحاسيس وجدانية يقوله الشاعر في لحظة صدق وعصارة حزن، ولما يتسم به من واقعية تامة، وعفوية مناسبة وصدق فني وقدرة على التعبير عن هذه العاطفة الإنسانية الخالدة "[3].

---

[1]– المبرد (أبي العباس محمد بن يزيد)، الكامل في اللغة والأدب، ج 2، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002، ص 390.

[2]– المرجع نفسه، ص 390.

[3]– بشرى محمد علي الخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام،(د، ط)، جامعة بغداد، 1981، ص 205.

" وهو بكاء الميت والتفجع عليه وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته وعَدُّ خلاله الكريمة."[1].

ومن أخلاق العرب أنهم كانوا لا يرثون قتلى الحروب، لأنهم ما خرجوا إلا ليقتلوا، فإذا بكوهم كان ذلك هجاء أو في حكمه، ولكن الرثاء لمن يموت حتف أنفه، أو يقتل في غير حرب، فحينئذ يعدون المآثر ويبالغون في الفجيعة كأن هذا الموت غير طبيعي[2].

وقد كان من عادات العرب " تشييع الميت مشيا بمشي الأقارب خلف الجنازة حفاة، وبحل النساء شعورهن وتلطيخ رؤوسهن بالرماد، وقد يحلق النساء رؤوسهن حزنا على الميت، ثم تستأجر النائحات ليظهرن شعار الحزن والحسرة ويذكرن محاسن الميت من حيث كان"[3].

وعلى هذا الأساس فالرثاء من فروع الشعر الغنائي التي ازدهرت في الجاهلية، وهو التأسف على الميت وذكر مناقبه ولما كان العرب لا يصطنعونه إلا عند الحاجة إليه كان رثاؤهم عاطفيا صادقا[4].

وأسلوب الرثاء في العادة سهل ودقيق خاصة إذا صدر عن نفس مهمومة وصدر محترق بلغ به الأسى والحزن مداه[5].

---

[1]– حسن جاد حسن، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام،(د.ط)، دار المعارف، مصر،(د.ت)، ص147.

[2]– المبرد، الكامل، ص 391.

[3]– حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم،(د.ط)، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص146.

[4]– فؤاد إفرام البستاني، الشعر الجاهلي (نشأته، فنونه، صفاته)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1937، ص 24.

[5]– عبد الرحمن عبد الحميد علي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي،(د.ط)، دار الكتاب الحديث، بيروت، 2008، ص 243.

وانطلاقا مما تقدم ذكره في تعريف الرثاء، يمكن القول أن الرثاء يلتقي مع غرض المدح في جوانب مختلفة ونواحي عديدة من حيث المعاني التي يتناولها، إلا أنهما يختلفان في الحالة الشعورية للشاعر، كما يقول ابن رشيق في كتابه العمدة:

" وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل ' كان' أو ' عدمنا به، كيت وكيت أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت"[1].

وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بَيِّنَ الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا، ولعل أبرز من نظم مرثيات في هذا المقام النابغة وأبو تمام الذي يعتبر من المعدودين في إجادة الرثاء.

[1]– أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد هنداوي، ج1، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2001، ص 166.

2- نظرة الشاعر الجاهلي لقضية الموت والمصير:

لقد نظر الشاعر العربي القديم إلى الموت والفناء نظرة حادة وربطها بنظرته الثاقبة للزمان والوقت، باعتبار أن وجود الإنسان هو وجود زمان، ومعنى ذلك أن الإنسان الجاهلي كان ينظر إلى الزمن نظرة تشاؤم وشقاء وخوف وقلق، لذلك فإن الباحثين والنقاد تعاملوا مع التجربة الجاهلية في مواجهة الزمن على أساس أنها تجربة وجودية لها خصوصيتها وتميزها.

ولهذا فإننا نجد الشاعر الجاهلي يرى أن كل يوم يمر عليه هو قرب لأجله ونهايته، يقول عدي بن زيد العبادي[1]:

كَيْفَ يَرْجُو المَرْءُ قُوتًا للرَّدَى وهي في الأَسْبَابِ رَهْنٌ مُخْتَبَلِ

كُلَّمَا خَلَفَ يومًا فَمَضَى زَادَهُ ذلك قُرْبًا في الأَجَلِ

فقد كان إحساسهم بالزمن مرتبطا بإحساسهم بالموت والفناء ولقد كانت حياتهم كلها حياة ترقب وخوف من الغد ومن المجهول.

وقد قامت التجربة الجاهلية على التحام طبيعي بالوجود، فمسألة أن الموت واقعة فردية تشمل الكل ويتعذر على الجماعة أو الفرد الاحتماء منه فكرة مسلم بها، وعليه يمكننا القول أن التجربة الوجودية في العصر الجاهلي تمثل نمطا من أنماط التجربة الوجودية الطبيعية في مواجهة الكون والحياة وفي التعبير عن الإنسان ومشكلاته، حيث يتعرف الإنسان على نفسه وعالمه، من خلال جدل طبيعي مع ذاته ووجوده[2].

---

[1]- ديوان عدي بن زيد العبادي، تح: محمد جبار المعيد، (د،ط)، مطبعة الجمهورية، بغداد- العراق، 1965، ص99.

[2]- حسن عبد الجليل حسن، الأدب الجاهلي، قضايا وفنون ونصوص، ط2، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، 2003، ص 273.

إن الموت والحياة ثنائيتان متلازمتان، وهما ضدان متباينان، وهما أيضا من أوسع مجالات التأمل والتفكر، وهو ما استوقف الشاعر الجاهلي وجعله حائرا وعاجزا عن فهم حقيقة الموت أو معرفة أسبابها، فنجد زهير بن أبي سلمى يعبر عنه بقوله[1]:

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءٍ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ يَسْلَم يُعَمر فَيَهْرَمِ

فهو يرى أن المنايا خبط عشواء، لكنه رغم عدم معرفته أسباب الموت يقر بحقيقته وحتمية وقوعه وأنه لا مفر منه.

ويقول الشاعر الجاهلي الآخر طرفة بن العبد في معلقته:[2]

لَعَمْرِكَ إِنَّ المَوتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى لَكَا لِطُولِ المَرْخَى وَثُنْيَاهُ بِاليَدِ

ونجده في بيت آخر يصف نفسه بالكرم والجود، يشرب الخمرة حتى الارتواء قبل مماته ضانا أن عطشه في حياته الصحراوية يستمر بعد الممات:

كَرِيمٌ يَرْوِي نَفْسَهُ في حَيَاتِهِ سَتَعْلَم إِنْ مُتْنَا غَدا أَيْنَا الصَّدَى

فهذا الاعتقاد بأن ثمة حياة بعد الموت، يشكل في حال وجوده تعويضا عن نهاية الحياة التي يحياها بحياة أخرى وتشبع بالتالي عنده فكرة الخلود[3].

وعليه فقد حظي الموت باهتمام كبير لدى الجاهلي، أرقه وشغل تفكيره بأسئلة كثيرة عجز عن إيجاد تفسيرات منطقية، وإجابات تريحه من همه وحيرته لتنتهي

---

[1]– زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، (د.ط)، دار صادر، بيروت، –لبنان، (د.ت)، ص 86.

[2]– طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، شرح : مهدي محمد ناصر الدين، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص26.

[3]– كامل فرحات صالح، الشعر والدين فاعلية الرمز في الشعر العربي، ط1، دار الحداثة، بيروت–لبنان، 2005، ص 29.

إلى اليأس من تعليل حقيقة الموت، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأنها بداية لتأمل عميق وفلسفة بدائية كانت جذورها في الشعر الجاهلي.

لا يكاد شعراء الجاهلية إغفال ذكر الموت وأثره الكبير في نفوسهم وحياتهم اليومية، فالشاعر الجاهلي كان على يقين بأنه صيد سهل أمام الموت الذي يأتي على كل شيء في هذه الدنيا، ولعلنا نلمس في قصائدهم ذلك الإيمان اليقيني بحتمية الموت في حياتهم حتى نجدهم يصورون قدرة الله على إفناء البشر من خلال الموت، فما من بشر إلا والموت يتربص له ينتظر لقائه، قال الله تعالى:"**إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيتُونْ**" [1] وقوله عز وجل :" **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانْ**" [2]، لذلك حملت كثير من أشعارهم ملامح نفس الإنسان الجاهلي وهي حائرة أمام هذه الظاهرة، التي جعلت الإنسان منذ القدم يتأمل ويمعن النظر في قضية الموت والخلود، وهي لطالما كانت القضية الأولى التي شغلت فكر البشر، وحتى أغلب الأساطير التي حاكها الإنسان القديم كانت أغلب مضامينها تدور حول مسألة الموت والخلود[3].

" إن الإنسان ليشعر بضرورة التغلب على الزمن، وهو لهذا قد يحاول عن طريق الفعل أن يجمع شتات ذاته في الحاضر، وكأنما هو يكتشف في الآن أقسام الزمان ليصنع من التحامها نوعا من الأبدية. ومعنى هذا أن الإنسان قد يحاول أن يحيا في حاضر مستمر، على طريق ضرب من (الحضرة المليئة)التي تندبه عن الضرورة، وتنأى بوعيه عن ندم الماضي وجوع المستقبل"[4].

---

[1]- الزمر / الآية 30.

[2]- الرحمان/ الآية 26.

[3]- ينظر:رعد أحمد علي الزبيدي، في الشعر الجاهلي، ط 2، دار الينابيع، دمشق، ص 176.

[4]- حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001 م، ص 309.

فمواجهة الإنسان للزمن وشعوره بالعداوة اتجاهه، قد تأتي من حقيقة أن الزمن بمروره يصحب معه النسيان، والنسيان فناء، وهذا الأخير نقيض الحياة، والحياة نفسها غاية، ومنه والتغني بالذات الإنسانية فردية أو جماعية هو محاولة لتخليد الإنسان الفاني لنفسه، وخلق نموذج الإنسان الباقي، فذلك رفض رمزي للفناء الذي يتهدد الإنسان.

وبالرغم من فقدان الشاعر الجاهلي للحس الحضاري، ولم يكن لهم دين يكشف عن السبب والغاية من الوجود، فقد استطاعوا أن يجعلوا قضية الموت محورا لقضاياهم ومشكلاتهم واستطاعوا مواجهة الفناء الذي يتربص بهم بانتصار رمزي من خلال تشكيل فني يعكس واقع حياتهم الطبيعية والاجتماعية[1].

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد في الطبيعة الذي يسعى إلى اختراق الزمن ببصره، فلا يلبث أن تنتابه الحسرة وخيبة الأمل وهو يشعر أنه هيهات للوجود الزماني أن ينفذ في سر الأبدية التي لا بداية لها: وأن يخترق حجب الأزلية اللامنتهية ومن هنا فقد عاد الإنسان من كل تلك التأملات الميتافيزيقية في فضاء الوجود، منكسر الخاطر خائب الأمل، وكأنما كتب عليه البقاء صريع الزمان أبد الدهر. ولهذا كان الفن عونا للإنسان، فالفن تحرير للإنسان من الزمن. لأنه يجعل الواقعة صورة تحمل طابع الشمولية والخلود [2] وقد كان الشاعر الجاهلي على وعي بأن شعره يبقى ويستمر من بعده، تقول الخنساء[3]:

وَقَافِيَةٍ مِثْلُ حَدِّ السِّنَا نِ تَبْقَى ويَهْلَكُ مَنْ قَالَهَا

زُجِرَتْ فَأَرْسَلْتُهَا غُرْبَةً وجَمَحَت في الصَّدْرِ إهْمَالَهَا

[1]- ينظر : المرجع السابق نفسه، ص 310.

[2]- ينظر : المرجع السابق نفسه، ص 310-311.

[3]- ينظر : المرجع السابق نفسه، ص 312.

ونحن فعلا إذا وقفنا أما م لحظة الموت س نكون حتما أمام شرخ نفسي عميق تتركه هذه اللحظات الصعبة والعصي بته حينما لا نملك أي طريقة للهروب ولا نملك سوى الرضوخ لهذا القانون الأزلي، والاستعداد للانتقال إلى عالم الحياة بعد الموت الذي تناولته جل الشرائع والديانات، فهذا الشاعر الجاهلي أبو ذؤيب الهذلي يصاب ببلاء عظيم وهو موت أولاده دفعة واحدة بحيث خطفتهم المنية دفعة واحدة، ويضعه القدر أمام هذه الحقيقة المرة فيقول في إحدى قصائده[1]:

وإذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أظْفَارَهَا ألْفَيْتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنْفَعُ

ولعل هذا الإحساس بالموت لدى الشاعر الجاهلي تولد نتيجة مواجهته أشكال الموت مباشرة في حياتهم اليومية، ولعل أبرزها مغامرات الغزو والإغارة التي كانت قانونا يحكم البادية العربية لضمان الحياة والاستمرارية، وذلك بالنظر إلى قساوة الصحراء، وندرة الماء وقلة الزاد وعناء السفر والترحال الدائم في أراضي الجزيرة العربية الواسعة، إضافة إلى تأصل تلك العادات والتقاليد في فكرهم ونفوسهم من طلب الثأر والحرص على تحقيق هـ والأنفة وعزة النفس، كل هذه الأشكال التي طبعت حياة الإنسان الجاهلي، خاصة في البوادي، جعلته على دراية كاملة بحجم المواجهة بين الحياة والموت وبين الأمل واليأس، وبين خيار السعي وراء العيش والحياة ونهاية المطاف عند حتمية الموت[2].

تلك المعاني أدركها الشاعر الجاه لي بفطرته وملاحظته لما يجري حوله، دون أن يكون هناك توجيه ديني أو سماوي، فأخذ البادية موطنا له للعيش، ورغم ذلك بقي الاعتقاد التام بظاهرة الموت وتأثيرها في نفوس الشعراء واستسلامهم إلى قضاء الله وقدره، فكان الزمن والطبيعة السبب الأول في إيصال الشاعر إلى تلك

[1]– ينظر : كوثر بوتهلولة، فلسفة الموت والمصير في شعر أبي العتاهية– دراسة فنية موضوعية– ، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2010–2011، ص 8.

[2]– ينظر : رعد أحمد علي الزبيدي، في الشعر الجاهلي، ص 176– 177.

العبر والقناعات، ولا يخفى أنه هناك لمسات دينية واضحة ظهرت ع ند بعض الشعراء، خاصة ممن عرفوا بيهوديتهم أو نصرانيتهم، كأمية بن أبي الصلت، وكعب بن الأشرف، والسموأل بن عاديا وغيرهم[1].

فنجد مثلا عدي بن زيد يقول:

لَيْسَ شَيء على المَمْنُونِ بِبَاقٍ غَيْرُ وَجْهِ المُسَبِّحِ الخَلاَّقِ

وقول عنترة بن شداد:

إِذَا كَانَ أَمْرُ اللهِ أَمْرًا يُقَدَّرُ فَكَيْفَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْهُ وَيَحْذَرُ

وَمَنْ ذَا يَرُدُّ المَوْتَ أو يَدْفَعُ القَضَا وضَرْبَتُهُ مَحْتُومَةٌ لَيْسَ تُعْبَرُ

وإن أمعنا النظر في هذا الجانب، وجدنا الشاعر الجاهلي يقر بحتمية الموت حتى أصبح يراه حقيقة قارة وثابتة متربص له في كل وقت وحين، وهذا ما كان قناعة راسخة ويقينية عند طرفة بن العبد من خلال قوله :

وَلَقَدْ بَدَا لي أَنَهُ سَيَغُولَني مَا غَالَ عَادًا وَالقُرُون، فَأَشبَعُوا [2]

وقوله:

فَكَيفَ يَرْجَى المَرْءُ دَهْرًا مُخلَّدًا وَأَعْمَالُهُ، عَمَّا قَلِيلٍ تُحَاسِبُهُ

أَلَمْ تَرَ لُقْمَانَ بن عَادٍ تَتَابَعَتْ عَلَيْهِ النُّسُورُ، ثُمَّ غَابَتْ كَوَاكِبُهُ

[1]– ينظر : المرجع السابق نفسه، ص 178.

[2]– يغول: يهلك، عاد: قبيلة عصر أمر نبيها هود فكانت من الهالكين، أشبعوا: بادوا وهلكوا.

وقد اقترن الحديث عن قضية الموت والفناء في كثير من الأحايين بلفظتي الدهر أو الزمن اللذان أصبحا شكلا من أشكال التعبير عن صورة الموت، فنجد الشاعر الجاهلي قد ضمن أشعاره هذه المعاني[1] ، كقول النابغة الذبياني:

تُكَلِّفُنِي أَنْ يَفْعَلَ الدَّهْرُ هَمَّهَا وَهَلْ وَجَدَتْ قَبْلِي على الدَّهْرِ قَادِرَا

وقد ارتبطت فلسفة ومفهوم الموت بالجوانب المختلفة في حياة الشاعر الجاهلي، خاصة بما يرتبط بتلك الصفات الممدوحة عند العرب كالشجاعة والبطولة والفروسية وتسيد قومه وحتى تصعلكه في بعض الأحيان، فنجد أن من حاربوا وشهدوا المعارك والحروب والوقائع هم من تركوا موروثا شعريا أكثر من غيرهم ليخلدوا به أسماءهم وفعالهم كوسيلة اعتزاز وافتخار لهم ولقبائلهم، منطلقين من فكرة أن الموت مدركهم في أي لحظة، إن كان في ساحة الوغى أو بين أهله وعشيرته، دون أن يمعنوا التفكير في طريقة ملاقاته[2].

ومن ذلك قول الشنفرى:

إذا ما أتتني مَنِيَّتِي لَمْ أُبَالِهَا وَلَمْ تثْرِ خَالاتِي الدُّمُوعَ وعَمَّتِي

وَلَمْ أَرُمْ في أَهْلِ بيتي قَاعِدَا إِذَنْ جَاءَنِي بَيْنَ العَمُودَيْنِ حُمَّتِي

وهذا ما يثبت إقدامهم في الحروب وصبرهم عليها، ومواجهتهم كل ما يهدد أمنهم واستقرارهم دون هوادة، فما كان الإدبار يوما خيارا يتيح لهم فرصة النجاة وإطالة العمر، يقول عنترة:

ولا تَفِرَّ إذا ما خُضْتَ مَعْرَكَةً فَمَا يَزِيدُ فِرَارُ المَرْءِ في الأَجَلِ

[1]- ينظر:رعد أحمد علي الزبيدي، في الشعر الجاهلي، ص 179.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 183.

وبناءا على ذلك فإن " في هذا المفهوم تترسخ قناعة الشاعر بقبول فنائية الإنسان في رثائية قصيدته، كما هي عند الشعراء الجاهليين الذين طالما أكدوا هذا المنحى الفكري والعقائدي في قبول فكرة الموت والفناء الحسي للإنسان"[1].

انطلاقا مما سبق يتجلى لنا بشكل واضح السبل التي انتهجها الشاعر الجاهلي في مرثياته عند حديثه عن الموت والفناء والتقدم في العمر، فوجد نفسه عاجزا أمام الدهر ونوازله عليه، وفي سعيه الدائم وبحثه المستمر عن إكسير الحياة وسر الخلود على مر الزمن، اتضح له أن السبيل الوحيد لتلك الغاية التي ظل ينشدها إنما يكون بالتخليد المعنوي من خلال المعاني السامية ومكارم الأ خلاق ومحامد الخصال التي كانت موجودة في الميت، والتي بها يظل ذكر اسمه قائما وحضوره دائما بين الناس، فيصبح بذلك مثالا يحتذى به، ويصبو الجميع إلى الوصول لمكانته تلك، وهذا ما يتحقق على يد الشاعر الجاهلي، والذي يحول الرثاء بما يحمله من حزن وبكاء ونواح إلى درس وعبرة تستقي منه الأجيال معاني إنسانية وأخلاقية تساعدها في فهم الحياة بصور أوضح، بناءا على تلك التقاليد والأعراف العربية الأصيلة التي كانت تربط المجتمع العربي وتجعله وحدة اجتماعية متماسكة تقوم على مكارم الأخلاق وفضائل الطباع.

وعليه فقد كان الشعر عموما والرثاء على وجه الخصوص عند الشعراء القدامى " سلاحهم الأقوى ضد الزمن، وردهم الأثبت على قسوة الحياة وتقلب الدهر وحتم الموت، لأنه أعظم اختراع صنعه الإنسان وقرر بإنسانيته وأكدها وضمن لها الخلود والتجدد في هذه الدنيا... ثم بالشعر يأملون أن يبقوا من أنفسهم قسما لا يفنى بفنائهم، بل يظل مخلدا لتجار بهم وعواطفهم وأفكارهم ونظرتم إلى الكون والوجود والحياة ..... والموت نفسه"[2].

---

[1]- المرجع السابق نفسه ، ص 189.

[2]- المرجع السابق نفسه ، ص 200.

فموضوعات الأدب عموما والشعر في أغراضه تبقى ماثلة على مر الزمن، لأنها أبدية، وهذا لا يتعارض مع اعتبار أن الأدب مثل الموسيقى فن زماني، لأن الأدب فن زماني من حيث تشكيله، حيث يمثل العم ل الفني حركة لها إيقاع خاص في الزمن، كما أنه من جهة أخرى يتصل بالزمن لارتباطه بعصر له ملامحه الخاصة، التي تطبع الأدب بطابعها.

" أما القول بأن الأدب محاولة لمواجهة الزمن، فهو يقوم على أساس أن هذا الزمن يسلب منا دائما أغلى ما نملك ويتهددنا أيضا بسلب نفوسنا، ولهذا فإن التشكيل الفني هو تشكيل ننتصر به على النسيان والفناء والضعف والقهر"[1].

ولهذا فإن الإنسان يظل بين الحياة التي تمثل كل ماهو إيجابي والزمن الذي يمثل القوة السلبية، ويتمخض هذا عن صراع بين الإنسان والدهر، صراع تتكشف من خلاله حيرة الإنسان الجاهلي وعجزه أمام الموت من جهة، ومن جهة أخرى سعيه وطلبه الدائم لتحقيق الخلود.

[1]– حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي– قضايا وفنون ونصوص، ص 311.

3- موضوعات الرثاء:

الرثاء لايأتي عفويا ولكنه في الغالب إنما يأتي مع صدمة الموت وبعد غياب الأحباب أو فقد الديار واندثارها، وهنا تصبح الصدمة والفقد مجالا واسعا للتأمل والمراجعة، وتتحول فيها الذات من حال إلى حال، ومن فرح إلى جزع ومن ضحك إلى بكاء، وعليه فالرثاء بطبيعته من أنسب موضوعات الشعر للتأمل الحاد والتفكر الحائر والقلق إزاء الحاضر والمستقبل.

وإذا تأملنا شعر الرثاء وجدناه يدور في ثلاث محاور رئيسية كبرى تمثل الموضوعات التي يتناولها الشعراء في مراثيهم وهي:

3-1- رثاء الأهل والأقارب:

هو أقدم صور الندب والنواح في شعرنا العربي، وللمرأة الجاهلية في هذا المجال القسط الأكبر والنصيب الأوفر، إذ كانت تندب أباها وإخوتها وتعبر عن ألم القبيلة وحزنها على أبطالها، وخاصة عقب الأيام والحروب، فنجد النساء النادبات في الجاهلية يؤلفن الأشعار التي يندبن بها موتاهم، فلا يكتفون فيها بتصوير شعورهم الحزين، بل يضيفون إليها إشادة بالميت ومناقبه[1].

يتصل رثاء الأهل والأقارب برثاء الشاعر لمن مات من أحبابه والعظماء من قومه حيث نج د الشاعر يقدم لنا رثاء يرسم من خلاله صورة لإنسان يستحق الحزن على موته والجزع من أجله وبمعنى آخر إنسان محبوب [2]، فارتباط الراثي بالمرثي يحدد درجة التوتر، ولأن طبيعة الفقيد تحدد المعاني اللائقة برثائه، فقد يكون المرثي قريب الراثي أو صديقه الحميم، فيغدو الرثاء عاطفيا شديد التوتر، ويكون سيدا أو أميرا فيغلب على الرثاء الإكبار، وتتفجر عواطف الحزن وتبرز

[1]- ينظر : شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الرثاء، ص 12-13.

[2]- ينظر : حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي، قضايا وفنون ونصوص، ص 362.

المبالغة لتهويل عظم الموقف والفاجعة العظيمة بفقد المرثي الذي كانت تجمعه قرابة وصلة وثيقة بالراثي، فنجد في هذا الشكل من أشكال الرثاء أنه أصدقها عاطفة وأعلقها بالنفس وأقربها إلى الفطرة والطبع، وفي هذه المراثي تبرز النساء مثل الرجال لا بجودة النظم وعمق المعنى، بل بصدق الإحساس وتصوير الفجيعة[1].

ويظهر تميز قصيدة الرثاء الجاهلية عن قصائد الأغراض الأخرى في صدق العواطف والأحاسيس الحقيقية غير المصطنعة، عكس ما كان في العصور الأخرى خاصة مع ظهور القصور والمجالس والأمراء والولاة والحلفاء والتي كان الشاعر خلالها أداة إبلاغ ولسانا للدولة، فالمراثي الجاهلية ذرفت دموعا مدرارا تفيض أسى ولوعة وحرقة، لأن الشاعر كان ذي قربة من المرثي فهو أب مثل أبي ذؤيب الهذلي، أو أخ كما عند المهلهل، أو ابن كامرىء القيس، أو أخت كما كان الحال عند الخنساء أو هند بنت ع بتة أخت الوليد وزوجة أبي سفيان، وغيرِ هؤلاء كثيرين[2].

ومن أمثلة رثاء الأهل والإخوان، متمم بن نويرة في رثاء أخيه[3]:

أَقُولُ لَهَا لِمَا نهتْنِي عَنِ البُكَا أفِي مَالِك تَنْهينَنِي أُمَّ خالدِ

فإن كان إخواني أُصِيبُوا أو أَخطَأت بَنِي أُمك اليَومَ الحُتُوف الرَّوَاصِدِ

فَكُلُّ بَنِي أُمي سَيُمْسُونَ لَيْلَة وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَعْيَانِهِم غَيْرُ وَاحِدِ

---

[1]– ينظر : غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي، قضاياه وأغراضه وأعلامه وفنونه، (د.ط)، دار الفكر، دمشق–سوريا، 2001، ص 244.

[2]– ينظر : أحمد علي الزبيدي، في الشعر الجاهلي، ص 192.

[3]– مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، 2012، ص166.

ويقول أوس بن حجر[1]:

لازال مِسْكٌ وَرَيْحَان لَهُ أرج على صَدَاكَ بِصَافِي اللَّوْنِ سلسالِ

يَسْقِي صَدَاكَ وَمُمْسَاهُ ومُصْبِحهُ رَفْهًا وَرَمْسكَ مَحْفُوف بِأَظْلالِ

3-2- رثاء النفس:

الشائع والسائد لدى الشعراء رثاء الأقارب والأهل والأصحاب وفرسان القبيلة ووجهائها، إلا أنه هناك ضرب آخر من الرثاء هو رثاء النفس، فنجد الشاعر يرى أنه الأجدر برثاء نفسه من رثاء غيره، فإذا رث ى الأحباب فنفسه أحب إليه، وإذا رثى الأقارب فنفسه أقرب إليه،" ويقال أن أول من بكى على نفسه وذكر الموت على لسانه يزيد بن حذَّاق ... وطبيعي أن يندب الشعراء أنفسهم وهم يفارقون دنياهم من ورائهم إلى حفرة مظلمة " [2]، فقد كان بعض الشعراء إذا أحس بدنو الموت منه ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من ترجيل شعره ووضعه في مدارج الكفن، ثم لحده وكفنه، وتنسب لل م زق العبدي أو يزيد بن الحذَّاق أبيات يصور فيها حاله بعد موته، فيقول[3]:

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ أَمْ هل لَهُ مِنْ حِمَامِ المَوْتِ مِنْ رَاقِ [4]

قد رَجَّلُونِي وما رُجِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْرُ أَخْلاقِ [5]

وأرسَلُوا فِتْيَةً مِنْ خِيرِهِمْ حَسَبًا لِيُسْنِدُوا في ضَرِيحِ التُّرْبِ أَطْبَاقِي[6]

---

[1]- المرجع السابق نفسه، ص 184.

[2]- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الرثاء، ص 30.

[3]- ينظر : شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص 208.

[4]- بنات الدهر : أحداثه، حمام الموت: إقترابه ودنوه.

[5]- الترجيل : تسريح الشعر، غير أخلاق: غير ممزقة.

[6]- الأطباق : المفاصل.

فالشاعر الجاهلي في خضم مأساته، يعيشها ويتذكر ما آلت إليه نفسه، فعند شعوره باقتراب أجله تختلج نفسه مشاعر عميقة تهز كيانه، فيتذكر ماضيه السعيد حيث عاش الشباب والعز والقوة ومعتبرا من حاضره البائس الحزين الذي لا حول ولا قوة له فيه، فالشاعر يعبر عن إحساسه بمشكلة من أعظم المشاكل التي تواجه الإنسان، فيأسف على الماضي، ويعاني من الحاضر ويتألم للمستقبل، إنه يبحث عن مهرب ينجيه من حدة الشعور بالغربة والقلق إزاء النهاية المجهولة المحزنة التي يقضي حياته بانتظارها لأنها الحقيقة الثابتة في الحياة، فالشاعر يبكي المصير الإنساني ويتحدث عن غربة الإنسان.

وأبرز من رثى نفسه وبكاها مالك بن الريب [*] الذي يصور حال أهله والدنيا بعد موته فيقول[1]:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِجَنْبِ الغَضَا أُزْجِي القِلاصَ النَّوَاجِيَا[2]

فَلَيْتَ الغَضَا لم يَقْطَعِ الرَّكْبَ عَرْضَهُ وَلَيْتَ الغَضَىمَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا

لَقَدْ كان في أَهْلِ الغَضَا لَوْ دَنَا الغَضَا مَزَارُ ولكن الغَضَا لَيْسَ دَانِيَا

والقصيدة طويلة يصف فيها الشاعر اقتراب أجله وحسرته على نفسه وعلى أهله وعلى الدنيا بأجمعها فيطغى عليها طابع الحزن والبكاء والنواح.

وقد نجد الشاعر يدعو أصدقاءه ويستعينهم على بلاءه، ويوصيهم ببكاءه بعد موته، وبالاستسقاء لقبره وكأن في ذلك ضربا من ضروب الحرص على البقاء،إنه

(*)– هو من مازن تميم. وكان فاتكا لصا، يصيب الطريق مع شظاظ الضبي الذي يضرب به المثل، فيقال: ألص من شظاظ، إلا أنه بعد سجنه تخلى عما كان فيه ولحق بسعيد بن عثمان بن عفان وغزا معه خراسان./ ينظر : ابن قتيبة(أبي عبد الله بن مسلم)، الشعر والشعراء، ج1، (د.ط)، عن وزارة الثاقفة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص 270.

[1]– مالك بن الريب، ديوان مالك بن الريب، تح: نوري حمودي القيسي، مج 1،(د.ط)،(د.ت)، ص88.

[2]– الغضا : شجر بنجد، القلاص : النوق، النواجي : السريعة.

باختصار تعبير عن الرغبة في الخلود والخوف من الفناء، فيحاول الشاعر تحاشيه لذكر الفناء، ورجوعه إلى أيام القوة والشباب، فيقول المتلمس[1]:

خَلِيلَيَّ إِمَّا مُتُّ يَومًا وزُحْزِحَتْ مَنَايَا كَمَا فِيهَا يُزَحْزِحُهُ الدَّهْرُ

فَمُرَّا على قَبْرِي، فَقُومَا فَسَلِّمَا وقُولا سَقَاكَ الغَيْثُ والقَطْرُ يا قَبْرُ

كَأَنَّ الذي غَيَّبْتَ لم يَلَه سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ والدُّنْيَا لَهَا وَرَقُ نَضِرُ

وهكذا من يستعرض شعر الجاهليين في رثاء النفس يجد فيه ذلك الخوف والرهبة والحرص على الحياة، أو التعلق بما بقي للشاعر فيها، فلم يكن هناك إيمان بحياة أخرى بعد الموت، وقد شاعت هذه المراثي بين الشعراء خاصة في صدر الإسلام والعصر الأموي، وكانت تتميز في العموم بصدق العاطفة التي تملؤها آهات الحزن والأسى.

3-3- رثاء المدن والممالك:

إن عدم الاستقرار والسفر والترحال الدائم هي أبرز السمات التي ميزت الحياة الجاهلية، فالجاهلي لم يستقر في مكان واحد، وهو ما فرضته عليه الطبيعة القاسية التي أضاقت عليه عيشه وجعلته في حيرة وانشغال بال حول البحث وتوفير الماء والكلأ لأنعامه ومواشيه، والترقب والانتظار لهطول الأمطار حتى يروي عطشها، فإن طال إمساك السماء هاجر وارتحل عله يجد مرعى لماشيته، وأرضا بها حياة تضمن استمراريته وتحقق استقراره[2]، الأمر الذي جعله لا يفكر في بناء المدن وتشييد البنيان والعمران، وذلك بالنظر لطبيعة الحياة التي كان يعيشها.

---

[1]- ينظر : سعودي فهيمة، رثاء النفس في الشعر العربي القديم، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي، 2011-2012، ص 31.

[2]- ينظر : عبد المنعم خفاجي، الشعر الجاهلي، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980، ص 70.

وعند اطلاعنا على الشعر الجاهلي، نجد غياب شبه كلي لذكر المدن ووصفها، إلا ما ندر وفي حالات قليلة جدا يكون الحديث فيها خارجيا وسطحيا، كقول المهلهل بن ربيعة[1]:

هَدَّتْ حُصُونًا كُنَّ قَبْلُ مَلاوِذًا لِذَوِي الكُهُولِ مَعًا وللشُّبانِ

أَضْحَتْ وأَضْحَى سُورُهَا مِنْ بعدها مُتَهَدِّمَ الأركَانِ والبُنْيَانِ

فقد كانت المدينة في الشعر الجاهلي موضوعا نادرا لم يولها الشعراء الجاهليون اهتماما كبيرا في أشعارهم ، إلا أن نوادر هذا الطابع من الرثاء معروفة في الجاهلية من خلال تلك الوقفات التي كان الجاهليون يقفونها عند الدمن الشاخصة والأطلال القائمة كالأشباح، تحكي قصة ساكنيها الذين ارتحلوا مع قافلة الزمن، وبقيت هي جاثمة، تصارع عناصر الطبيعة التي تحنو عليها فتأتي على بعض أركانها.

وإذا تأملنا في تطور رثاء المدن والمماليك العظيمة من خلال ما جادت به قرائح الشعراء في المشرق العربي وجدنا دولة بني أميّة[*] التي جنا عليها الدهر وقوض أركانها قد بكاها الشعراء بحسرة وحرقة.

ازدهر وشاع رثاء المدن في العصور التي تلت العصر الجاهلي، وخاصة في العصر العباسي " حيث أصبحت وسمة للحياة الجديدة ولتطور الواقع الحضاري

---

[1]- مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة،(د.ط)، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية،(د.ت)، ص 84.

(*)- سلالة الخلفاء الذين حكموا بين (661-750م)، عاصمتهم دمشق، ولما قضى عليهم العباسيون انتقلوا إلى الأندلس وحكموها بين(756-1031م).

العربي الإسلامي الذي خرج من البداوة إلى التمدن ... ومن ثم اكتملت رؤية الفن والشعر للمدينة كمركز للحضارة ورمزها."[1]

وقد أدى الازدهار الذي عرفه العرب في العصر العباسي في شتى المجالات، نتيجة النقلة النوعية في حياتهم في تلك الفترة، أدى ذلك إلى ظهور موقفين متضادين هما " القبول والرفض يمثل الأول الإحساس بالغربة والحنين إلى البادية والصحراء، أما الموقف الثاني فهو الافتخار بالمدينة والسعادة بالعيش فيها"[2].

والموقف الأول الذي نقف عنده هو ظاهرة هجاء المدن، فالريفي ذلك الإنسان البسيط، جعل من البداوة عنصرا راسخا ومتجذرا في نفسيته وتفكيره وشخصيته، ومع تطور الحياة والانتقال إلى حياة المدن، وجد ذلك الفرق الشاسع بين حياة البداوة وحياة الحضارة والتمدن، ولذلك غير نظرته للمدينة فنبذها وذمها بشدة لما جلبته من تغيير على سلوكيات الفرد وأخلاقه وعقائده[3].

أما الاتجاه الثاني فهو الافتخار بالعيش في المدينة والسعادة بها، وفيه نجد ذكر المحاسن والحنين والشوق إلى المدينة ووصف جمالها ومحاسنها، وهنا نجد أن رثاء المدن كان قالبا واسعا لدى الشعراء، فبكى الشعراء مدنهم الزائلة بكثير من الحسرة، ووصفوها بأحسن الأوصاف، ومن ذلك قول أحد الشعراء في بكاءه على بغداد[4]:

بَكَتْ عَيْني على بَغْدَادَ لَمَّا فَقَدْتُ حَضَارَةَ العَيْشِ الأنِيقِ

---

[1]- عبد القادر شريط، فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس هجري، مذكرة ماستر، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2005-2006، ص 37-38.

[2]- ينظر : ابراهيم روماني، اسئلة الكتابة النقدية، (د.ط)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1992، ص 77.

[3]- ينظر : عبد القادر شريط، فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس هجري، ص38.

[4]- ينظر : شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الرثاء، ص 47.

أَصَابَتْهَا مِنَ الحُسَّادِ عَيْنٌ فَأَفْنَتْ أَهْلَهَا بالمِنْجَنِيقِ

فَقَومٌ أُحْرِقُوا بالنَّارِ قَسْرًا وَنَائِحَةً تَنُوحُ على غَرِيقِ

وَصَائِحَةٌ تُنَادي واصحابي وَقَائِلَةٌ تَقُولُ أَيَا شَقِيقي

وهكذا فقد بكى الشعراء بغداد، ومنهم من بكى البصرة حين اقتحمها الزنج، وأثرت هذه الفاجعة في نفس ابن الرومي تأثيرا عميقا، ويقول في ذلك[1]:

كَمْ أَغَصُّوا مِنْ شَارِبٍ بِشَرَابٍ وَكَمْ أَغَصُّوا مِنْ طَاعِمٍ بِطَعَّامِ

كَمْ ضَنِينٍ بِنَفْسِهِ رَام مَنْـجًى فَتَلَقُّوا جَبِينَهُ بالحُسَـــــامِ

كَمْ أَخٍ رَأَى عَزِيزَ بَنِيـــــهِ وهو يُعْلَى بِصَارِمٍ صِمْصَـامِ

كَمْ رَضيعٍ هُناكَ قد فَـطَمُوهُ بِشَبَا الطفلِ قَبْلَ حِينَ الفِـطَامِ

كَمْ فَتَاةٍ بِخَاتِمِ الله بِـــــكْرٍ فَضَحُوهَا جَهْرًا بِغَيْرِ اكتِـمَامِ

وفي هذه الأبيات وصف لقصور البصرة وديارها ، فبكاها ودعا العرب إلى الوقوف معها في محنتها ونصرتها.

وينتقل بنا الحديث إلى العصر العباسي فنجد هارون الرشيد " ينكب البرامكة(*) نكبتهم المشهورة، وكانوا قد استولوا على كل مرافق الدولة، وعظم سلطانهم، وجمعوا الشعراء من حولهم يغدقون عليهم عطاياهم، فلما دالت دولتهم وقف الشعراء يبكونهم ويسفحون الدمع عليهم وإن الباحث في تاريخ بلاد المغرب

[1]– ينظر: شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الرثاء، ص 48.

(*)– البرامكة : أسرة فارسية تقلد أفرادها مناصب هامة في أجهزة الدولة العباسية، نكبتهم مشهورة لكنها مجهولة الأسباب.

العربي والأندلس، وجد الكثير من الدول أفل نجمها وبريقها وعمها ظلام دامس، واكتسى ملوكها أثواب الذل والهوان، بعد أن كانت أعزة وعلى رؤوسها التيجان

فإذا بالدهر يطيح بتلك الرؤوس، فتتهاوى الصروح العالية، وتنهد تلك الأبراج المشيدة"[1]، ومن أهم الدويلات التي ندبها الشعراء وأكثروا من البكاء والنواح عليها دويلات ملوك الطوائف بالأندلس، فإنهم " لما استغاثوا بيوسف بن تشافين (*) ملك المرابطين(**) في المغرب ضد الأسبان الشماليين في بلادهم رأى ما هم فيه من ضعف ووهن شديد، فكر في الإستلاء عليهم حتى يحفظ للإسلام والعرب هذا الجزء الذي يكاد يتداعى، ولم يلبث أن التقمهم ملكا وراء ملك، ودولة وراء دولة"[2].

من خلال ما تقدم ذكره في حديثنا حول رثاء المدن، فإن الشعراء لم يكن لهم موقف سلبي أمام تدهور أحوال البلدان، بل كانوا يحذرون من المصير الذي ستؤول إليه، فأخذوا يستصرخون الملوك والحكام ويستنفضون عزائمهم، ويوقضون هممهم، ولكن صرخاتهم كانت تذهب أدراج الرياح، فأخذت تلك المدن تتهاوى الواحدة تلو الأخرى بصورة تثير الألم والحزن في النفوس.

وقد استوقدت هذه المحن لوعة الشعراء، فبكوها بكاء مرا، وتفجعوا على فقدانها ووصفوا ما أصابها على أيدي الأعداء من خراب وتدمير، وما لحق بأهلها من صنوف الذل والعذاب والهوان.

1- المرجع السابق نفسه، ص 41.

(*)- يوسف بن تشافين : مؤسس دولة المرابطين بمدينة مراكش، وحارب ملوك الطوائف والأندلس، 1107م،

(**)- المرابطون : قامت حضارتهم بين (1042- 1146م) بمدينة مراكش بالمغرب الأقصى.

2- المرجع السابق نفسه، ص43.

4- خصائص ومميزات الرثاء:

بما أن الرثاء يرتبط أساسا بالموت، فذلك ما جعله غرضا شعريا وفنيا معروفا لدى الكثير من الأمم والحضارات، وكانت العرب إحداها حيث عبروا عن هواجسهم وقلقهم واضطرابهم إزاء الموت من خلال قصائدهم وشعرهم عبر الرثاء بالأساس وذلك منذ العصر الجاهلي، وكان الجاهلي يِ العرب يندبون موتاهم ويتحسرون على فراقهم ويثنون على خصالهم وصفاتهم، معبرين عن هولهم ووقع الصدمة الشديدة في نفوسهم بفقدهم أحبتهم وأهلهم، معترفين عن عجزهم عن رد الموت وضعفهم أمامه، فوقوعه وم واجهته أمر لا مفر منه **قال الله تعالى" كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْت ثُمَّ إلينَا تُرْجَعُونْ"**[1].

وللرثاء عدة مميزات وخصائص تميزه عن باقي أغراض الشعر الأخرى، أبرزها ثلاث خصائص رئيسية لابد من توفرها في المرثية وهي:

4-1- النـــــدب:

" وهو الرثاء الصادق الملتاع، الذي ينم عن الح سرة الشديدة، والذهول إزاء هول الموت، والجزع من خطبه، وقد سمي باسم الندب لكون المرثية أشبه بالمناحة مفعمة بالتوجع، وحرقة الأحشاء مليئة بالتأوه والعويل، تحمل مشاعر الثكل أو الترمل أو التيتم"[2].

ويقول شوقي ضيف أن الندب " هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع، وقد

[1]- سورة العنكبوت، الآية 57.

[2]-عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، ط1، دار القلم بيروت، 1992، ص192.

عرف العرب منذ العصر الجاهلي هذا النوع ... ونجد النساء النادبات في الجاهلية، يؤلفن الأشعار التي يندبن بها موتاهم، ومع مضي الوقت انفصلت صناعة الندب عن صناعة الشعر، فأصبح هناك محترفون يعولون في المأتم بأشعار تصنع لهم "[1].

والنساء في الجاهلية " لم يكن يندبن موتاهن يوما أو أياما، بل كن يطلن ذلك إلى سنين معدودات، ويقال إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن و بالنعال والجلود، وكن يصنعن ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام ... وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن في فقيدهم، فتلك التعويذات أصبحت وخاصة عند نسائهم بكاء ونواحا وندبا حارا"[2].

وعليه فإن الندب هو بكاء بحرقة على فقدان الأقارب والأهل، فتكون الصدمة شديدة والأحزان أليمة تترك جروحا في قلب الشاعر لا تندمل تبقى آثارها لطول الدهر، فيعتصر الألم قلبه، وتجود عيناه دموعا غزار تجري بقوة على وجنتيه مجرى السيل الجارف في النهر، فتنطلق الكلمات لتكون لتكون صرخة قوية يعبر بها الشاعر عن الأحاسيس الدفينة في أعماقه، فتكون قصيدته الوعاء الذي يصب فيه كل آلامه وأشواقه وأحاسيسه.

4-2- التأبيـــــــن:

" أصل التأبين هو الثناء على الشخص حيا أو ميتا، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط. فالتأبين إشادة بالميت ومناقبه وصفاته، فمن عادة العرب في

[1]- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الرثاء، ص 12.

[2]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص 207

الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت، فيذكروا مناقبه، ويعددوا فضائله، ويشهروا محامده، وشاع ذلك عندهم ودار بينهم، وأصبح في سننهم وعاداتهم"[1].

ويرى قدامة بن جعفر في حديثه عن المراثي أنه ليس هناك فصل بينها وبين المدح، إلا في الألفاظ التي تدل على أن المذكور في القصيدة هالك، مثل: كان، تولى، قضى نحبه، وما شابه ذلك، وهذا لا يزيد ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت هو بمثابة مدح له في حياته، وهناك من الشعراء من يرثي بذكر الأشياء التي كان الميت يزاولها، وغير ذلك، وعليه فالتأبين لا يمتاز على المديح إلا في اللفظ دون المعنى، إذ يجب أن يجري الأمر في التأبين على سبيل المديح، ويجب دائما أن يذكر في الشعر ما يدل على أنه مرثية لهالك، لا مديحا لباق، والقاصد لتأبين الرجال لا بد له من ذكر أربعة خصال: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة[2].

وربما كان شواعر العرب أشجى الناس قلوبا عند المصائب وأكثرهن حسرة وجزعا على المفقود، على اعتبار أن اللين والضعف متأصل في طبعهن، أما الرجال، فما اشتهر منهم إلا أفراد غصتهم المصيبة بما تركت ألما عميقا وجرحا لا يندمل في نفوسهم، ويذكر ابن رشيق أنه من عادة القدماء في الرثاء ضرب الأمثال في مراثيهم بأعزة الملوك، والأمم السابقة، والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود والوحوش الكاسرة في القفار والنسور والعقبان، والحيات، لطول أعمارها وشدة بأسها وقوتها، وذلك كثير في أشعارهم[3].

---

[1]- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الرثاء، ص 54.

[2]- ينظر: قصي الحسين، شعر الجاهلية وشعراءها، ط1، منشورات المكتبة الحديثة، لبنان، 2006، ص 319-320.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص 321-322.

وكان الجاهليون يكثرون من تأبين من يموتون منهم في الحروب، وربما تضمن هذا التأبين هجاء لاذعا لأعدائهم وفخرا بقبيلتهم وأيامها، ومن ذلك قول المرقش[1]:

هَلْ بِالدِّيَارِ أَنْ تُجِيب صَمَمْ لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقًا كلم

ولم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب، فقد أبنوا في مراثيهم أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم، فخرا بهم واعتزازا بمناقبهم وأعمالهم، ولعلهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضا عطرة، فكانوا يذكرون الموت في قصائدهم ويعتبرونه حوض لابد من وروده كما وردت واستسقت منه الأجيال السابقة من ملوك وغيِ ملوك[2].

انطلاقا مما تقدم فالتأبين هو أقرب إلى ذكر مناقب الميت وتعداد خصاله وصفاته، فلا نجد فيه صخبا ولا نواحا، فنجد الشاعر هنا يبرز قيمة الميت ومنزلته ومكانته التي كان يشغلها في أهله ومجتمعه، مشيرا إلى الفراغ الكبير الذي تركه برحيله والذي لا يملؤه غيره، فتكون خسارته خسارة لكل الناس وليس خسارة لأهله فقط.

4-3- الـــــــعزاء:

العزاء يأتي في درجة أعلى من التأبين، فنجد الشاعر ينطلق من موت أحد أهله أو أقربائه أو إنسان عزيز عليه، ليتجاوز ذلك إلى التساؤل والتفكير والبحث عن حقيقة ثنائية الحياة والموت، وهل من سبيل لتفاديه وتجاوزه؟ وكيف هي الحال بعد الموت، هل هي النهاية؟ أم هناك حياة أخرى بعده؟ فينطلق الشاعر إلى البحث عن إجابة لهذه التساؤلات، فيأخذ تفكيره بعدا فلسفيا " إذ نرى الشاعر ينفذ

[1]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص 209.

[2]- ينظر :المرجع نفسه، ص 209- 210.

من حادثة الموت الفردية الذي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معاني فلسفية عميقة، فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم، والخلود، ومراد هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم "[1].

ونجد في هذا النوع من الرثاء أن الشاعر يميل إلى تخفيف المصاب، وإدخال الصبر والسلوان على القلب المفجوع، فيجنح إلى تصوير الموت، ويمعن في خواطر العدم والفناء وقد يضرب الأمثال بالأمم الزائلة التي اندثرت، وأوائل الملوك الذين أدركهم الموت والفناء وحل بهم قضاء القدر، فلم تدفع عنهم سلطتهم ذلك البلاء ولم ينفعهم عز ولا تاج.[2]

وعليه يمكن القول أن " أصل العزاء الصبر، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت، وأن يرضى من فقد عزيزا، بما فاجأه به القدر، فتلك سنة الكون، نولد، ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء، ثم نموت، وكأن الناس راحلون وهم لا يفكون عقد رحلهم إلا في أجداثهم، فهي قرارهم، وهي غايتهم التي ينتهون إليها، ولا مفر لهم منها ولا خلاص"[3].

وكخلاصة لحديثنا حول خصائص ومميزات الرثاء، نستطيع القول أن الشاعر الجاهلي قد ألم بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء، وكان رثاؤه غالبا يتعلق بأفراد ونادرا ما ارتبط الرثاء بالجماعة.

بناء على ما تم ذكره في هذا الفصل حول مظاهر وتجليات الرثاء في الشعر الجاهلي، وجدنا أن الرثاء يرتبط ارتباطا وثيقا بالموت والفناء، وأنه في أصله تطور لأقوال وطقوس سحرية ومنطوقات سجع موجزة تطورت إلى رجز، كانت النساء النادبات تقلنها على قبور الموتى وهن يمزقن ثيابهن ويخمشن وجوههن.

---

[1]- عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، ص 197.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 197.

[3]- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الرثاء، ص 86.

وما يميز الرثاء هو صدق العاطفة والمشاعر والبعد عن التكلف والتصنع، حيث يلتقي الرثاء بالمدح في عدة جوانب من حيث ذكر المناقب والمحامد والمآثر، إلا أن الإختلاف هو أن المدح يكون فيه المقصود بتلك الصفات حيا، أما الرثاء فالمقصود بتلك الصفات ميت، وتسبق تلك الصفات بما يدل على أنها كانت موجودة في شخص لم يعد موجود.

الفصل الثاني: موازنة بين المهلهل والخنساء في غرض الرثاء – موضوعاتيا –

1- التعريف بالمهلهل بن ربيعة: 1-1- اسمه.

1-2- حياته وخصاله.

1-3- وفاته.

2- الرثاء عند المهلهل بن ربيعة.

3- التعريف بالخنساء: 3-1- اسمها ونسبها.

3-2- حياتها وإسلامها.

3-3- مكانتها وشعرها.

3-4- وفاتها.

4- الرثاء عند الخنساء.

5- موازنة بين المهلهل والخنساء في غرض الرثاء– موضوعاتيا –: 5-1- أوجه التلاقي.

5-2- أوجه الإختلاف.

1- التعريف بالمهلهل بن ربيعة:

1-1- إسمه :

اختلف الرواة والباحثون في اسم شاعرنا البطل، وكثرت وتنوعت الروايات وكل رواية تقوم وتستند على أبيات شعرية مجهولة المصدر أو ضعيفة أو مشكوك في صحتها، أو قد تدعم نفسها بحادثة أو واقعة تزعم أنها قد حدثت.

وبما أننا في صدد البحث ومحاولة معرفة اسم شاعرنا الحقيقي، فلا ريب أنه يجب ادراك أنه ما من رواية صحيحة تماما، وأن كل الدراسات والأبحاث التي سبقتنا إلى هذا الموضوع مشكوك فيها ولو بصورة نسبية.

ومن الروايات والدراسات التي تطرقت إلى اسم شاعرنا:

1- ذهبت رواية إلى أن اسمه هو **عدي بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب** .[1] ، واستندت في ذلك على البيت الشعري القائل[2]:

ضَرَبَتْ صَدْرَهَا إِليَّ وقالت يا عُدَيًّا لقد وَقَتْكَ الأَوَاقِي

وببيت الحارث بن عباد[3]:

لَهْفُ نَفْسِي على عُدَيٍّ ولم أعرف عُدَيًّا إِذْ أَمْكَنَتْنِي منه اليَدَانِ

---

[1]-البغدادي (أبي جعفر محمد ابن حبيب)، كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه، تح: سيد كسروي حسن، (د.ط)، (د.ت)، ص 51.

[2]- مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، ص 58.

[3]- المصدر نفسه، ص 7.

2- وذهبت رواية أخرى إلى أن اسم شاعرنا هو **امرؤ القيس** [1]، واستدلت على ذلك بالبيت الشعري الذي يقول[2]:

ضَرَبَتْ صَدْرَهَا إِلَيَّ وقالت يا امْرَأَ القيس حَانَ وقت الفُراق

وبالبيت القائل[3]:

وامرىء القيس مَيِّتٌ مَا كُرِّمَ أَوْ دَى وخَلَّى عَلَيَّ ذَاتِ العِرَاقِي

إِذْ ذهب بعضهم إلى أن المقصود في هذا البيت الشعري هو المهلهل، وأن صاحب هذا البيت هو عدي بن ربيعة شقيق المهلهل[4].

3-وذهبت رواية ثالثة إلى أن امرؤ القيس هو عدي بن ربيعة وهو المهلهل، كما وقد لُقب بألقاب عديدة ومختلفة منها:

-**أبو ليلى**: وهي كنيته وذلك لأنه لم يكن له أولاد ذكور فلُقب بأكبر بناته وهي ابنته ليلى وله ابنة أخرى يقال لها عبيدة، وقد زَوَّجَ ليلى إلى كلثوم بن مالك التغلبي فأنجبت له عمرو بن كلثوم بن مالك صاحب المعلقة المشهورة[5].

---

[1]-ينظر: الأصمعي (أبي سعيد عبد الملك بن قريب)، الأصمعيات، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط5، بيروت، (د.ت)، ص 154.

[2]-ينظر : البكري أبي عبيد الأوني وعبد العزيز الميمني، سمط اللآلىء، ج1، (د.ط)، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص 111.

[3]- المرزباني (أبي عبيد الله محمد بن عمران)، معجم الشعراء، تح: فاروق اسليم، ط1، دار صادر، بيروت، 2005، ص110.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ص 110.

[5]- ينظر: أبي جعفر البغدادي، كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه، ص51.

- المهلهل:

وهو من أشهر الألقاب التي أطلقت على شاعرنا وأكثرها انتشارا وتداولا في الكتب والمراجع والسير التي تناولت حياته، إضافة إلى تضمين هذا الاسم في أبيات شعرية ترجع للشاعر نفسه أو إلى شعراء آخرين ، "وما ذُكِر أن مهلهلا مأخوذة من الهلهلة وهي الاضطراب شيء يقوله بعض الرواة، ويذهب آخرون الى أن هذا الاسم مأخوذ من الهلهلة وهي رقة نسج الثوب، ويقولون: سُمي مهلهل لأنه أول من رقق الشعر وتجنب الكلام الغريب الوحشي"[1].

فهناك رأيان في أصل وسبب هذه التسمية التي أطلقت على الشاعر، فذهب فريق إلى أنه سُمي كذلك لأنه هلهل الشعر أي أرقه[2]، واستشهدوا على ذلك ببيت شعري قاله لزهير بن جناب وهو[3]:

لماَّ تَوَعَّرَ في الكِرَاعِ هَجِينهُم هَلْهَلْتُ أثأرُ جَابِرًا أو صُنْبُلا

وقال فريق آخر أن سبب تسميته بمهلهل هو هلهلة شعره وهلهلة ثيابه أي اضطرابه واختلافه[4].

وعند بحثنا في أصل ومعنى كلمة "هلهل" وجدنا كلمة "الهلهل" وتعني السم[5]، ومنه يمكن أن نذهب إلى إمكانية اشتقاق اسم المهلهل من هذه الكلمة، وهو من كان يذيق أعداءه السم القاتل. وهو أمر يتماشى مع ظروف وعيش ووقائع حياة المهلهل في حربه على البكريين، ويتوافق أيضا مع توجه العرب الذين عمدوا إلى تسمية أولادهم بِشَرِّ الأسماء لإرهاب وإخافة الأعداء إذ "يُحكى

---

[1]–ينظر : مجد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، (د.ط)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (د.ت)، ص 327.

[2]–أنظر : ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص215 ،/ وينظر: علي شلق، الشم في الشعر العربي، ص283.

[3]– مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، ص66. ومعنى هلهلت : قاربت.

[4]– ينظر: أحمد سويلم، شعرا ءالعرب، الأسماء والألقاب والكنى، ط1، دار العالم العربي، القاهرة، 2012، ص129./ وينظر: الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص 86.

[5]– الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة" الهلهل"ص 1705.

أنه قيل لأبي الدقيس الكلابي لِمَ تُسَمُّونَ أبنائكم بِشَرِّ الأسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا"[1].

-الزير سالم:

أما تسميته بالزير فهو اسم أطلقه عليه أخوه كليب، فكان يناديه بزير النساء أي جليسهن ومرافقهن[2]، فقد عُرف عنه كثرة اللهو والمجون والانغماس في ملذات الحياة بصورة أقل ما يمكن وصفها أنها غير طبيعية ومبالغ فيها من معاقرة للخمر والسكر وتردد على الحانات رفقة صديقه ونديمه الذي لا يفارقه سواء في الشرب أو الصيد أو الحرب همام بن مرة. وبالنسبة لتسميته سالم فيقال لأنه كلما ذهب إلى صيد أو حرب أو غزو رجع سالما، ولا يعرف لهذا الاسم سند أو مصدر.

1-2- حياة الشاعر وخصاله:

تقسم حياة شاعرنا إلى مرحلتين[3]:

1- المرحلة الأولى قبل مقتل كليب. قضاها المهلهل في اللهو والصيد والاستمتاع بمختلف الملذات والانغماس فيها، وليس في هذا ما يثير الحيرة ، فمن المعروف أن الفارس الجاهلي يعتز ويفتخر بمشاركته في المعارك والحروب، وبمعاقرة الخمر ومصاحبة النساء في وقت السلم ، وهذا ما نلمسه بوضوح في وصف طرفة بن العبد للفارس الجاهلي فيقول[4]:

---

[1]- السويدي (أبي الفوز محمد أمين البغدادي)، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، (د.ط)، دار إحياء العلوم، بيروت، (د.ت)، ص9.

[2]- ينظر: الأصمعي، الأصمعيات، ص 154.

[3]- ينظر: مهلهل بن ربيعة، ديوان المهلهل، تح: أنطوان محسن القوال، ط1، دار الجيل، بيروت، 1995، ص 9.

[4]- طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، ص 25.

فَلَولا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الفَتَى وَجَدِّكَ لم أَحْفَلِ مَتَى قَامَ عُوَّدِي [1]

فَمِنْهُنَّ سَبْقُ العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلِ بالماءِ تُزْبِدِ [2]

وكَرِّي إذا نَادَى المُضَافُ مُحَنِّبًا كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ [3]

وتَقْصِيرُ يوم الدَّجْنِ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تحت الخَبَاءِ المُعَمَّدِ [4]

فإذا كانت هذه حال الفارس الجاهلي، فكيف تكون حال ابن سيد القبيلة وأخ ملك تغلب وبكر في قمة عزتهما وغِبِّ قوتهما وتزعمهما قبائل العرب.

أما شعره فقليل في هذه المرحلة، إذ أنه لم يكن يقول إلا بعض الأبيات في الغزل.

2- المرحلة الثانية بعد مقتل كليب [5]، وهي المرحلة الأطول والأهم في حياة المهلهل، وهو الذي كان يعتبر كليبا أخوه وأبوه ومليكه وكل شيء في حياته، فمقتل كليب أثار حربا طويلة بين تغلب وبكر عرفت بحرب البسوس، وكان المهلهل بطلها بعدما عاهد أخاه على الثأر ممن غدروا به، فيقول[6]:

خذِ العهدَ الأكيدَ عليَّ عمري بتركي كلَّ ما حوتِ الديارُ 7

وَهَجْرِي الْغَانِيَاتِ وَشُرْبَ كَأْسٍ وَلُبْسِي جُبَّةً لاَتُسْتَعَارُ 8

---

[1]- لم أحفل : لم أبال. قام عودي : معناه متى مت.

[2]-الكميت : الخمر الحمراء التي تضرب حمرتها الى السواد.

[3]-الكر : أشد القتال. المضاف : المدرك والذي أضافته الهموم، السيد : الذئب. وذئب الغضا : أخبث الذئاب، المتورد : والذي يطلب ورود الماء.

[4]-الدجن : المطر، البهكنة : التامة الخلق، المعمد : المرفوع بالعمد.

[5]- هو وائل بن ربيعة ملك تغلب وبكر، وقتله جساس بن مرة أخو زوجته الجليلة وابن عمه، فرماه بحربة من ورائه ضربة قصمت ظهره./ ينظر : علي شلق، الشم في الشعر العربي، ص 283.

[6]- مهلهل بن ربيعة، ديوان المهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، ص34.

[7]-العهد : العلم والوصية، والميثاق واليمين التي تستوثق بها.

[8]-الغانية : المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة. الجبة : ثوب واسع الكمين مشقوق من الأمام، والجبة الدرع.

وَ لستُ بخالعٍ درعي وَ سيفي إلى أنْ يخلعَ الليلَ النهارُ 1
وإلاَّ أَنْ تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرٍ فَلاَ يَبْقَى لَهَا أَبَداً أَثَارُ 2

فانقطع عما كان فيه من لهو وشرب وحمل لواء الثأر لأخيه من كل بكري على وجه الدنيا، وأنه لن يهنأ بعيشه حتى يُفنيهم جميعا.

1-3 وفاتـــــــــــــــه:

وبعد أن تطرقنا في البحث إلى اسم الشاعر وخصاله وحياته المثيرة والصاخبة، ها نحن نصل أمام تساؤل يحيرنا، ويدفع بنا إلى البحث والتقصي: كيف انتهت حياة الشاعر؟ هل مات المهلهل حتف أنفه أم جراء تقدمه في السن أم أنه قد قتل؟

وفي بحثنا عن جواب لهذا السؤال وجدنا أنفسنا في حيرة، فهناك آراء متضاربة وروايات مختلفة ومتعددة حول وفاة شاعرنا البطل.

فحاولنا التطرق إلى تلك الروايات التي هي الأكثر توافقا مع سيرة حياة المهلهل وأكثرها تطابقا مع الأحداث.

فهناك رواية ذهبت إلى أنه وقع أسيرا في بلاد البحرين عند عمرو بن مالك الذي أحسن معاملته، وفي أحد الأيام شرب المهلهل خمرا حتى سكر فأخذ في مدح تغلب وأمجادها وتغنى ببطولاته وأفعاله في المواقع والحروب وهدَّدَ وتوعَّدَ، فغضب بن مالك وأقسم ألاَّ يسقيه ماءً ولا خمرًا ولا لبنًا حتى يُسقى ربيب [3] ويَرِدَ الهضاب فهَلَكَ المهلهل ومات عطشا[4].

---

[1]–خلع : نزع، وتبرأ من ، وخلع امرأته : طلقها بفدية.

[2]– سراة كل شيء : أعلاه، وسراة بكر : أشرافها.

[3]– ربيب : جمل عمرو بن مالك، وكان لا يرد ولا يأتي قبل خمسة أيام.

[4]– ينظر: الأصفهاني (أبي الفرج علي بن الحسين)، كتاب الأغاني، تح: إحسان عباس وآخرون،مجلد 6، ط3، دار صادر، بيروت، 2008، ص94.

وذهبت رواية ثانية أن عمرو بن مالك رجع عن قسمه وسقاه من ماء موبوء، فمات المهلهل[1].

وذهبت رواية أخرى إلى أن المهلهل رئيس تغلب والقائم بالحرب، فلما كان يوم قضة، وهو آخر أيامهم وكان على تغلب، أَسَرَ الحارث بن عباد مهلهلا وهو لا يعرفه، فقال له: تدلني على عدي بن ربيعة وأنت آمن؟ فقال له المهلهل: إنْ دللتك على عدي فأنا آمن ولي دمي؟ قال الحارث: نعم، فقال :أنا عدي!، فجَزَّ نَاصِيَتَهُ وخَلاَّه، وقال: لم أعرف، وفي ذلك يقول الحارث بن عباد:

طُلَّ مَن طُلَّ فِي الحُروبِ وَلَم يطلل 2 قَتيلٌ أَباتَهُ ابنُ أَبانِ

ثم خرج المهلهل فلحق باليمن، فنَزَلَ في جَنْب [3]، فخَطَب اليه رجلا منهم ابنته فقال: إني طريدٌ غريبٌ فيكم، ومتى أنكحتُكُم قال الناس اعتسروه، فأكرهوه حتى زوَّجَها ، وكان المهرُ أَدَمَا[4]، وقال[5]:

أَنْكَحها فَقْدُها الأرَاقَم في جَنْب وكان الحِبَاء من أَدَم6

لو بأَبانيَنْ جاء يَخْطُبها رُمِّل ما أَنفُ خاطبٍ بِدَم7

ثم رحل وأخذ يسير هائمًا على وجهه ويجول في البلاد مُرافقًا له عبدان، فضَجِرا من ملازمته ومصاحبته وشرعا في قتله، فرأى الموت في عينيهما وبما تضمره نفسيهما وأحس به وعَلِمَ عِلْمَ اليقين أنهما ليسا براجِعَيْنِ عمَّا يعزمان على تنفيذه وما دبَّراهُ له من مكر وسوء ، حيث يقول ابن الكلبي أن المهلهل قتله عبدان كانا يخدمانه فَمَلَّا منه وكان قد شاخ وخرف ونسب للمهلهل أنه لما أحس

---

[1]– المرجع السابق نفسه، ص 94.

[2]– لم يطلل : لم يهلك

[3]– جنب : حي في اليمن

[4]– أدم : كانت مهور نسائهم من الأدم

[5]– مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، تح: طلال حرب، ص 81.

[6]– الأراقم : بطون من تغلب، الحباء : المهر

[7]– أبانان : جبلان، رمل : لطخ بالدم

أن العبدين يريدان التخلص منه وقتله أوصاهما أن ينشدا ابنته سليمى بيتا من الشعر وهو[1]:

مَنْ مُبْلِغُ الأقْوَامِ أَنَّ مُهَلْهِلا لله دَرُّكُمَا وَدَرُّ أَبِيكُمَا

فلما أنشداها البيت، أوثقت العبدين وقالت: ما أراد أبي إلا أن يقول:

مَنْ مُبْلِغُ الأقوام أَنَّ مُهَلْهِلا أَضْحَى قَتِيلاً في الفَلاةِ مُجَدَّلا

للهِ دَرُّكُمَا وَدَرُّ أَبِيكُمَا لا يَبْرَحَ العَبْدَانِ حَتَّى يُقْتَلا

فضربوهما حتى اعترفا بقتله[2].

وأغلب الظن وحسب رأينا أن الرواية الأخيرة هي الأكثر صحة والأقرب إلى التصديق لارتباطها مع سيرورة الأحداث وقصة حياة الشاعر، فالأكيد أن المهلهل كبر و أَسَنَّ، ولم يُقتل في حرب أو قتال أو معركة.

أما بالنسبة لتحديد سنة وفاته فكما اختلفت الروايات حول مكان وطريقة موته اختلفوا أيضا في السنة التي مات فيها، فذهب بعض الدارسين إلى أنه توفي سنة 500م[3]، وذهب البعض الآخر إلى أنها تقريبا سنة 525م[4]، وفريق آخر قال أنها 530م[5]، ومنهم من قال 531م[6].

وكل هذه التواريخ تُحيل إلى أنه مات في الثلث الأول من القرن السادس ميلادي.

---

[1]- ينظر: بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص90.

[2]- ينظر: لويس شيخو اليسوعي، شعراء النصرانية في الجاهلية، ج1، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1890، ص 171.

[3]- المرجع نفسه، ص 171.

[4]- علي شلق، الشم في الشعر العربي، ص283.

[5]- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج1، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص 110.

[6]- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، تح: شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، (د.ت)، ص 135.

2- الرثاء عند المهلهل بن ربيعة:

أفنى العمر كله في رثاء أخيه والبكاء عليه، حارب أربعون سنة ليأخذ بثأره ممن قتلوا أخاه، ليست جملة إنشائية بل هي جملة خبرية تصف وقائع حقيقية سجلها التاريخ في صفحاته وتناقلت أخبارها أجيال تلو الأجيال، ومن غير **مهلهل بن ربيعة** الشاعر الفارس يمكن أن يكون بطلا لهذه الحرب التي أشعلها لسنوات طوال بعدما اكتوى بفقد من كان له أخا وأبا وملكا **كليب بن ربيعة** الذي قتله **جساس بن مرة.**

كانت العلاقة التي تجمع **المهلهل** بأخيه **كليب** علاقة جد مميزة، وهذا ما ينعكس بقوة في أشعاره، وللتعرف أكثر على خصائص ومميزات شعر **المهلهل** في رثاء أخيه نتناول بعض النماذج الشعرية بالدراسة والتحليل.

كان **المهلهل** معتزلا لقومه يعاقر الخمرة مع نديمه **همام بن مرة** أخو **جساس** قاتل **كليب**، ولما شاع خبر مقتل **كليب** في الحي، فقام النواح والصياح في بني تغلب، وخرجت الأبكار والعواتق من مضاربهن مخمشات الوجوه، مشققات الجيوب، ولما استفاق **المهلهل** من سكره، رجع إلى الحي فوجدهم يعقرون خيولهم ويكسرون سيوفهم ورماحهم، فقال: ويحكم، لقد ذهبتم شر مذهب، أتعتقرون خيولكم وتكسرون سلاحكم حين احتجتم إليها.؟ ثم خاطب النساء فنهاهن عن البكاء وقال: استبقين للبكاء عيونا تبكي مدى الدهر.[1] ثم أنشد:[2]

كُنَّا نَغَارُ عَلَى العَوَاتِقِ أَنْ تَرَى بالأمْسِ خَارِجَةً عَنِ الأَوْطَانِ[3]

[1]- ينظر : بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، ط1، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1944، ص 31.

[2]- مهلهل بن ربيعة، ديوان المهلهل بن ربيعة، تح: طلال حرب، ص 83.

[3]- العواتق : جمع العاتقة وهي الفتاة أول إدراكها.

فَخَرَجْنَ حِينَ ثَوَى كُلَيْبُ حُسَّرا مُسْتَيْقِنَاتٍ بَعْدَهُ بِهَوانِ [1]

فَتَرَى الكَوَاعِبَ كالظِّبَاءِ عَوَاطِلا إِذْ حَانَ مَصْرَعُهُ مِنَ الأَكْفَانِ [2]

يَخْمِشْنَ مِنْ أَدَمِ الوُجُوهِ حَوَاسِرا مِنْ بَعْدِهِ وَيعدْنَ بِالأَزْمَانِ [3]

وقد ضن الجميع أنه يهذي من سكره، فلما أصبح غدا إلى دفن أخيه، وقام على قبره يبكيه، ويندبه، على رؤوس الأشهاد وهو يرثيه، ويقول:[4]

يا لَهْفَ نَفْسِي مِنْ زَمَانٍ فَاجِعٍ أَلْقَى عَلَيَّ بِكَلْكَلٍ وَجِرَانِ [5]

بِمُصِيبَةٍ لا تُسْتَقَالُ جَلِيلَةٍ غَلَبَتْ عَزَاءَ القَوْمِ والنِّسْوَانِ [6]

ثم استطرد :

فابْكِينَ سَيِّدَ قَوْمِهِ وانْدُبْنَهُ شُدَّتْ عَلَيْهِ قَبَاطِيُّ الأَكْفَانِ [7]

وابْكِينَ لِلأَيْتَام لَمَّا أَقْحَطُوا وابْكِينَ عِنْدَ تَخَاذُلِ الجِيرَانِ

وابْكِينَ مَصْرَعَ جِيدِهِ مُتَزَمِّلا بِدِمَائِهِ فَلَذَاكَ ما أَبْكَانِي [8]

فقد نزل عليه الخبر كالصاعقة ولم يصدقه في بادىء الأمر، لما كان لـ**كليب** من مكانة عظيمة في نفس **المهلهل** ، فأثر الفجيعة شديد شج قلبه، وجعل عينيه تنهمر بالدموع ولا تجف، وأن نفسه قد نزل بها غم شديد أثقلها، وغدت النساء

---

[1]– ثوى : هلك، الحسر : جمع الحاسرة وهي المرأة المكشوفة الرأس والذراعين .

[2]– الكواعب: النساء البالغات الجميلات. العواطل: النساء المجردات من الحلي والزينة.

[3]– أدم الوجوه : بشرة الوجوه.

[4]– مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرحه: طلال حرب، ص 84.

[5]– الكلكل: الصدر، الجران: باطن العنق. وألقى علي بكلكل وجران أي أرخى ثقله.

[6]– لا تستقال : لا يصفح عنها .

[7]–القباطي : جمع القبطية وهي ثياب من كتان بيض رقاق.

[8]– المتزمل : المتلفف.

حاسرات يخمشن الوجوه ويشققن الجيوب، فلن يكون بعد هذا راحة ولا نوم ولا لذة شرب أو أكل، فصدره يتأجج غيظا وينفطر ألما وحزنا. [1] ثم تهدد وتوعد بالثأر فيقول:[2]

فَلَأَتْرُكَنَّ بِهِ قَبَائِل تَغْلِب قَتْلَى بِكُلِّ قَرَارَةٍ ومَكَانِ [3]

قَتْلَى تُعَاوِرُهَا النُّسُورُ أَكُفَّهَا يَنْهَشْنَهَا وحَوَاجِل الغِرْبَانِ [4]

" وبفضل تأثير سلطان الثأر في العقول، كانوا يأخذون أنفسهم بطقوس بدوية منها شق الجيوب وخمش الوجوه، وخروج الأبكار، وذوات الخدر، كما فعل آل كليب عندما قتله جساس"[5].

وبعد أن دفن المهلهل أخاه قام على قبره يرثيه[6] :

دَعَوْتُكَ يَاكُلَيْبُ فَلَمْ تُجِبْنِي وَكَيْفَ يُجِيبُنِي البَلَدُ القِفَارُ [7]

أَجِبْنِي ياكُلَيْبُ خَلاكَ ذَمٌّ ضَنِينَاتِ النُّفُوسِ لَهَا مَزَارُ [8]

أَجِبْنِي ياكُلَيْبُ خَلاكَ ذَمٌّ لقد فُجِعَتْ بِفَارِسِهَا نِزَارُ [9]

---

[1]– ينظر: علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص292.

[2]– مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب ، ص 84.

[3]– القرارة : المكان المنخفض.

[4]– تعاورها : تداولها.

[5]– حنا نصر الحتي، مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ص114.

[6]– مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح : طلال حرب، ص 32.

[7]– القفار: الخلاء من الأرض ليس فيه ماء ولا ناس ولا كلأ.

[8]– خلاك ذم: برئت مما تذم عليه من قول أو فعل. لها مزاز: أي تجب زيارتها.

[9]– فجع : آلمه إيلاما شديدا. نزار: هو نزار بن معد وإليه ينتسب بطن من العدنانية وهم بنوا نزار بن معد بن عدنان ومنهم ربيعة ومضر.

ففي البيت الأول يستغرب الشاعر عدم إجابة كليب لندائه إياه ويتساءل عن ذلك في صدر البيت، ليجيب هو نفسه عن ذلك التساؤل في عجز نفس البيت بأن المكان والبلد المقفر الخالي لايمكن أن يجيبه ويرد عليه، ونلاحظ تكرار الصدر نفسه في البيتين الثاني والثالث (أجبني ياكليب خلاك ذم) وهذا للتأكيد وللدلالة على الإلحاح في السؤال والاستغراب، ثم في عجز البيت الثالث يذكر أن نزار كلها فجعت بفقد كليب وليس الشاعر وحده الذي فجع به، وهذا فيه رفعة ودلالة على مكانة كليب وهيبته اللتان تركا فراغا كبيرا بعد رحيله لايستطيع أن يملؤه أحد[1].

وربما كانت الشجاعة والبطولة والإقدام أبرز الصفات التي ذكرها الشعراء في نعيهم لأمواتهم، وكأن تلك الفضائل ذهبت بذهابه، فقد اهتم الإنسان الجاهلي بتخليد القوة والفروسية والبأس والشجاعة، وهذه الصفات قد كانت وليدة البيئة الصحراوية المقفرة، ووليدة نمط العيش السائد وقتها، ماجعلها صفات تجلب المفخرة والاعتزاز لصاحبها حتى بعد موته [2]. ومثل ذلك قول المهلهل في رثائه لكليب الذي اجتمعت فيه معاني العزم والحزم والشجاعة [3]:

كُلَيبُ لا خَيرَ في الدُنيا وَمَن فيها إن أَنتَ خَلَّيتَها في مَن يُخَلّيها
كُلَيبُ أَيُّ فَتى عِزٍّ وَمَكرُمَةٍ تَحتَ السَفاسِفِ إِذ يَعلوكَ سافيها
نَعى النُعاةُ كُلَيباً لي فَقُلتُ لَهُم مادَت بِنا الأَرضُ أَم مادَت رَواسيها
لَيتَ السَماءَ عَلى مَن تَحتَها وَقَعَت وَحالَتِ الأَرضُ فَانجابَت بِمَن فيها
أَضحَت مَنازِلُ بِالسُلّانِ قَد دَرَسَت تَبكي كُلَيباً وَلَم تَفزَع أَقاصيها
الحَزمُ وَالعَزمُ كانا مِن صَنيعَتِهِ ما كُلَّ آلائِهِ يا قَومُ أُحصيها
القائِدُ الخَيلَ تَردي في أَعِنَّتَها زَهواً إِذا الخَيلُ بُحَّت في تَعاديها

[1]- ينظر: عيسى إبراهيم السعدي، جماليات الشعر العربي على مر العصور، ط1، دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، 2010،ص 236.

[2]- ينظر: رعد أحمد علي الزبيدي، في الشعر الجاهلي، ص 195.

[3]- مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرحه: طلال حرب، ص 89-90-91.

النـاحِرُ الكومَ ما يَنفَكُّ وَالـواهِبُ المِئَةَ الحَمرا بِراعيها
مِن خَيلِ تَغلِبَ ما تُلقى أَسِنَّتُها إِلّا وَقَد خَصَّبَتها مِن أَعاديها
قَد كانَ يَصبِحُها شَعواءَ مُشعَلَةً تَحتَ العَجاجَةِ مَعقوداً نَواصيها
تَكونُ أَوَّلَها في حينِ كَرَّتِها وَأَنتَ بِالكَرِّ يَومَ الكَرِّ حاميها
حَتّى تُكَسِّرَ شَزَاراً في نُحورِهِم زُرقَ الأَسِنَّةِ إِذ تُروى صَواديها
أَمسَت وَقَد أَوحَشَت جُردٌ بِبَلقَعَةٍ لِلوَحشِ مِنها مَقيلٌ في مَراعيها
يَنفُرنَ عَن أُمِّ هاماتِ الرِجالِ بِها وَالحَربُ يَفتَرِسُ الأَقرانَ صاليها
يُهَزهِزونَ مِنَ الخَطِّيِّ مُدمَجَةً كُمتاً أَنابيبُها زُرقاً عَواليها
نَرمي الرِماحَ بِأَيدينا فَنورِدُها بيضاً وَنُصدِرُها حُمراً أَعاليها
يارُبَّ يَومٍ يَكونُ الناسُ في رَهَجٍ بِهِ تَراني عَلى نَفسي مُكاويها
مُستَقدِماً غَصصاً لِلحَربِ مُقتَحِماً ناراً أُهَيِّجُها حيناً وَأُطفيها
لا أَصلَحَ اللَهُ مِنّا مَن يُصالِحُكُم ما لاحَتِ الشَمسُ في أَعلى مَجاريها

شرح المفردات :

خلَى: ترك، السفاسف: جمع السفساف وهو مادق من التراب فارتفع، السافي: التراب، مادت: مالت، رواسيها: جبالها، انجابت: انشقت، الآلاء: الفضائل والمزايا، ردي الفرس: ضرب الأرض بحوافره في سيره، الكوم: الجمال، غارة شعواء: لا تبقي ولا تذر، العجاجة: الغبار والدخان، النواصي: جمع الناصية وهي شعر مقدم الرأس إذا طال. ويقال عقد ناصيته إذا غضب وتهيأ للشر، الكَرَّة: الحملة في الحرب، شزرا: أي يمينا وشمالا، الأسنَّة الزُرق: الشديدة الصفاء، صواديها: عطاشها، البلقعة: الأرض الخالية، الجُرد: الخيل التي لا رجَّالة فيها، المقيل: موضع القيلولة والاستراحة، الأقران: جمع القرين وهو نظيرها في العلم والشجاعة، صاليها: الذي يعانيها، يهزهزون: يحركون، الخطي من الرماح: المنسوب إلى الخط وهو مرفأ في البحرين، المدمجة: الشديدة المحكمة، الكُمّت: جمع الكميت وهو بين الأسود والأحمر، أنابيبها: جمع الأنبوب وهو

قصبة الرمح، الزُرق: جمع الأزرق وهو النصل الشديد الصفاء، نوردها: نرسلها، نصُدرها: نُرجعها، الرَّهَج: الشغب والفتنة.

يستهل الشاعر قصيدته بتصوير مناقب **كليب** ، وبأن الدنيا بعد رحيله عنها لم يعد فيها خير، ويتحدث عن كرم أخيه وشجاعته ورئاسته في البيت الثاني فيصفه بفتى العز، والفتى هو الشاب القوي والكريم السخي [1]، وكان **كليب** سيد ربيعة، وأعز أهل زمانه، فكان الناس لا يسقون ولا يرعون إلا ما فضل عن كليب، وكان يقول: أجرت وحش الأرض فلا يصاد، فقيل" أعز من **كليب**" [2] وأصبحت العرب تضرب به المثل في العزة، فالأبيات التي بين أيدينا والتي وضعها الأخ المحب لأخيه، جاء الغرض منها هو الرثاء. والرثاء هنا هو وصف لمكارم الميت (**كليب**)، فهو كان غيثا كثير العطاء ينفق بسخاء كحبات المطر حين تنزل لا يمكن عدُها أو إحصاؤها.

بقراءتنا لهذه الأبيات نلتمس فيها رقة و عاطفة صادقة، عاطفة الأخ الحزين على أخيه، تصعَّد الزفرات ثائرة متفجعة، تندبه وتغالي في ندبه، فالشاعر يبكي فيها الحزم والعزم، لأنهما دُرسا بعد **كليب**، ويندبه لأنه قائد الخيل يوم المعركة وناحر الكوم ساعة الكرم، وواهب المئة الحمرا إذا دعا داعي العطاء، لأن هذه الصفات كانت تتجلى فيه، وتتمثل في أفعاله. فالشاعر في هذا يجمع بين الندب والتأبين والعزاء، وبكاؤه بكاء لكل الصفات الخيرة التي يضيفها على الميت[3].

فينتقل الشاعر إلى وصف الحالة النفسية التي صاحبت سماعه خبر موت أخيه **كليب**، فالرجل من الأهمية بحيث كان لوقع موته هزة خضت الشاعر، فكأن الارض مالت، والجبال زالت، عندما نعى النعاة أخاه:(مادت بنا الأرض أم

---

[1]– ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة : فتي، ص 1220.

[2]–ينظر: أبي هلال العسكري، كتاب جمهرة الأمثال، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطاش،ج1، ط2، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص 132.

[3]–ينظر: حمودي نوري القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص 188.

مادت رواسيها)، فالخطب عند **المهلهل** مروع إلى درجة أنه لا يرى فرقا بين زوال الكون وموت **كليب** ، بل يرى من الخير أن يفنى العالم ويؤول مصيره إلى الخراب، إذ لا خير في الدنيا وما عليها بعد **كليب** [1]:

لَيْتَ السَّمَاءَ على منْ تَحْتها وقَعَتْ وَحَالَت الأَرْضُ فانجابت بمن فيها

وهذا هو حال النادب والنادبة يظهرا محاسن ومآثر السيد القتيل، وصنائعه وأفعاله المأثورة في أمجاد القبيلة ومفاخرها، فبذلك يحرض قومه على الأخذ بثأره لأنهم يشعرون بالخسارة العظمى كلما عُددت وذُكرت أعمال الميت ومحاسنه، فالثأر مقدس عند العرب والسكوت عنه عار، فلا عجب أن يسلك **المهلهل** هذا الطريق، فيرينا أخاه قائد خيول تغلب إلى النصر، وهذه الخيل تعدو معجبة بنفسها دون باقي الخيول العادية، ورماح تغلب لا تشكو عطشا لأنها تسقى بدماء الأعداء، ولكن لونها يتغير[2]:

نَرْمي الرماحَ بأيدينا فنوردها بيضاً ونُصدرُها حُمْرَا أَعَاليها

وبعد أن ذكر الشاعر فضل أخيه وما كان لتغلب تحت قيادته من عزة ومجد، ينتقل إلى الإخبار عن موقفه اتجاه **بني مرة**، فيهددهم ويتوعدهم بأنه لن ينام عن طلب ثأره، وأعلن عليهم حربا طويلة لا صلح بعدها [3]:

لا أَصْلَحَ اللهُ مِنَّا مَنْ يُصَالِحُكُمْ ما لاحَتِ الشَّمْسُ في أَعْلى مَجَاريها

ويصور لنا **المهلهل** حال القوم بعد مقتل **كليب** فيقول بأن القوم تصدروا المجلس من بعده، فلم يعد لهم سيد يتصدر المجلس، وأصبح الجميع يتحدثون في كل أمر

[1]-ينظر: بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، ص 31-32.

[2]-ينظر : المرجع نفسه، ص32.

[3]-ينظر: المرجع نفسه، ص 132.

عظيم، ولم لا يفعلون ذلك و **كليب** غير موجود، فيقول[1]:

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ واسْتَبَّ بَعْدَكَ يا كُلَيْبُ المَجْلِسُ

وتَكَلَّمُوا في أَمْرِ كُلِّ عَظِيمةٍ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُم بِهَا لَمْ يَنْبِسُوا

وَإِذَا تَشَاء رَأَيْت وَجْهًا وَاضِحا وَذِرَاع بَاكِيَة عَلَيْهَا بُرْنُسُ

تَبْكِي عَلَيْكَ وَلَسْتُ لائِمَ حُرَّةٍ تَأْسَى عَلَيْكَ بِعَبْرَةٍ وتَنَفُّسُ

كان **كليب** وائل لا توقد مع نار ضيافته نار في أحمائه، وما يجاوره من مضارب وأوطان، بل يتفرد في ذلك لا مباري له ولا مشارك، وكان إذا حضر مجلسه الناس لا يجرؤ أحد أن يحدث غيره أو يفاخره أو يسابَه، إعظاما لقدره وإجلالا لهيبته ومكانته، فيقول على وجه التحسر: خُبِرت أن نيرا ن الضيافة بعدك أوقدت لسقوط احتشامك، وأن أهل المجلس تنازعوا الكلام بعدك وتجاذبوه حتى صار بعضهم يسب بعضا ويصك في وجهه الكلام القبيح، لا أحد يردعهم، ولا حشمة تدفعهم [2].

وقوله :" وتكلموا في كل عظيمة "، يريد أن الجميع أصبح يقول برأيه في كل أمر، لأنهم أصبحوا سدى لا تعرف التابع من المتبوع فيها، ولا الرئيس من المرؤوس، حتى صار تدبير العظيمة بينهم فوضى فضًا، يتناهبون تناقل الكلام، ويتجاذبون إجالة وإبداء الرأي ولو كنت حاضرهم ما تجرؤوا أن ينبسوا بين يديك بارتجال خطاب، أو رد جواب.

ويقال : كلَّمته فما نبس، أي لم يتكلم بحرف، وما سمعت للقول نبسة ولا زجمة. وقوله " استب " يقتضي اثنين فأكثر وإنما نمَ بالمجلس ، لأن المراد به اهل

[1]–مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، ص 44.

[2]–ينظر: المرزوقي (أبي علي أحمد بن محمد الحسين)، شرح ديوان الحماسة، مجلد1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 655.

المجلس، كقوله تعالى :**<< واسْئَلِ القَرْيَةَ التِي كُنَّا فِيهَا >>** [1]، وقول العرب: بنو فلان يطؤهم الطريق[2]." وما زال **المهلهل** يبكي أخاه ويندبه ويرثيه بالأشعار وهو يجتزي بالوعيد لبني مرة حتى يئس قومه وقالوا : إنه زير نساء. وسخرت منه بكر وهمت بنو مرة بالرجوع إلى الحمى وبلغ ذلك **المهلهل** فانتبه للحرب وشمّر ذراعيه وجمع أطراف قومه. ثم جز شعره وقصّر ثوبه وهجر اللهو وحرم القمار والشراب"[3]، يقول **المهلهل** [4]:

خُذِ العَهْدَ الأكِيدَ عَلَيَّ عُمْرِي بِتَّرِكي كُلَّ ما حَوَتِ الدِّيَارُ [5]

وهَجْرِي الغَانِيَاتِ وشُرْبَ كَأْسِ ولُبْسِي جُبَّةً لا تُستَعارُ [6]

ولَسْتُ بِخَالِعٍ دِرْعِي وسَيْفِي إلى أنْ يخْلَعَ اللَّيلَ النهارُ

وإلاَّ أَنْ تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرٍ فَلا يَبْقَى لَهَا أَبَدًا أَثَارُ [7]

ويقسم الشاعر أنه لكثرة حزنه على أخيه لن يخلع درعه ولا سيفه، سيبقى متهيبا على استعداد للحرب وأخذ الثأر، لن يستريح طيلة هذا النهار حتى يحل الليل، وهذا دلالة على حزنه، فهو لن ينشد الراحة اليوم، فحتى الدموع لم تشأ مفارقة عينيه، فهو لم يبكي يوما ولم يألف البكاء أبدا، لأن المصاب جلل بالنسبة إليه، " كما يعبر الشاعر هنا كذلك عن شعوره الملتهب المتأجج نحو الأعداء فيدعو عليهم باللعن، ويظهر مرارة الألم في نفسه بإعلانه أنه يعد العدة لمجازاة

---

[1]–سورة يوسف / آية 82.

[2]– ينظر: المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ص656.

[3]– لويس شيخو اليسوعي، شعراء النصرانية في الجاهلية، الجزء1، ص 164–165.

[4]– مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، ص 34.

[5]– العهد: العلم، والوصية، والميثاق واليمين الذي تستوثق بها.

[6]– الغانية: المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة. الجبة: ثوب واسع الكمين مشقوق من الأمام والجبة الدرع.

[7]– سراة كل شيء: أعلاه، وسراة بكر: أشرافهم.

الأعداء على ما اقترفوه من جرم، وأنه قد أخذ العهد على نفسه أن يترك الملذات، والعناية بنفسه ويهجر النساء ويمتنع عن الشراب، ويديم لبس الأسلحة، حتى يثأر لشرفه بإبادة الأعداء"[1].

وقد كان اصرارهم الشديد في طلب الثأر جعلهم يأخذون بعرف تكافؤ الدم، فغالوا أحيانا في إحراج قبيلة القاتل بأمور تعجيزية ليبرروا استئناف الحرب عليهم، ويقول **المهلهل** لما أسرف في الدماء[2]:

أَكْثَرْتُ قَتْلَ بني بَكْرِ بِرَبهمُ حتَّى بكَيْتُ وما يَبْكِي لَهُمْ أَحَدُ [3]

آلَيْتَ باللهِ لا أرْضَى بِقَتْلِهِمْ حتَّى أُبَهْرِجَ بَكْرًا أَيْنَمَا وُجِدوا [4]

لقد كانت العصبية من رموز القوة في الجاهلية، وهي ما يربط بين أبناء القبيلة الواحدة، فيكون وفاء الفرد لعشيرته ولإخوانه لا حدود له، فهو يهب حاملا سيفه ورمحه لينصر أخاه دون الحاجة للسؤال عن السبب، فقد كانوا يعيشون على قاعدة **< أُنْصُر أَخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا>** [5]، فالرجل وأخوه يد واحدة على ابن العم، وأبناء العم الأقربون يد واحدة على ابن العم البعيد، وأبناء العم جميعا يد واحدة على المهاجم من الغرباء.

فالمهلهل لا يجد من هو شريف ونظير **لكليب** فيقتله به، فآلى على نفسه أن يقتل بكل عضو من **كليب** رجلا من بني بكر، فيبعث الحرب ويأبى الصلح، ويظل طول حياته مناضلا في بطولة وعناد، فما دام" القتيل شريفا فإن ثأره لا يتحقق

---

[1]– علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص 292.

[2]– مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح : طلال حرب، ص 27.

[3]– الرب: الملك السيد. يقصد به هنا كليبا.

[4]– آليت : أقسمت. بهرج الشيء: أباحه، ودم مبهرج: لا دية له.

[5]– البخاري (أبو عبد الله محمد بن اسماعيل)، صحيح البخاري، إدارة الطباعة المنيرية، عالم الكتب، بيروت، 1348هـ، ص168(عن أنس).

إلا بدم شريف من مكانته، وحتى إن قتل القاتل فذلك لا يكفي ما دام لم يكن نظيرا وكفؤا للقتيل الذي يطالب أهله بثأره، بل يبحثون عن شريف من قوم القاتل يكون مكافئا للقتيل في المنزلة والمكانة حتى يقتل به، فيغسل عندئذ بقتله دمه، وينام الثأر"[1].

وعليه فما دام **المهلهل** لا يجد في قبيلة بكر من هو كفؤ لـ **كليب** حتى **جساس** نفسه، ولا يجد ثأره يتحقق إلا في أن يبيد بكرا من على وجه الأرض ويفنيهم عن بكرة أبيهم فلا يبقى لهم أبدا أثار.

[1]- حنًا نصر الحتي، مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، ص136-137.

3- التعريف بالخنساء:

3-1- إسمها ونسبها:

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سُلم [1]، أما الخنساء لقب غلب عليها وفيه أقوال: فمن قائل أنه تشبيه لها بالبقرة الوحشية في جمال عينيها، ومن يقول كما جاء في اللسان: الخنسُ في الأنف: تأخره إلى الرأس وارتفاعه عن الشفة، والرجل أخنس والمرأة خنساء. ومن قائل: قصر الأنف ولزوقه بالوجه وأصله في الظباء والبقر، والثلاث الخُنَّس من ليالي الشهر العربي لأن القمر يخنِس فيها أي يتأخر[2].

أما تماضر فمعناه ذات البياض. وكلها معان تدور حول الجمال والشموخ، " وآل الشريد الذين هم آل الخنساء، كانوا أشهر أبناء قبيلة سليم في العصر الجاهلي، وقد حافظوا على تقدمهم بين القبائل، حتى في ظل الإسلام، ويذكر ابن خلدون أن قبيلة الخنساء هاجرت إلى افريقية بعد الفتح الإسلامي فاحتفظ ابناؤها بمكانتهم وحافظوا على نسبهم إلى زمنه، مما جعل لهم شوكة وصولة حتى ذلك التاريخ "[3].

فالخنساء ذات نسب شريف، أبوها كان من سادة قومه، ذو عز وجاه وسلطة وثراء، وكانت الخنساء أصغر أبناءه بعد صخر ومعاوية، وعلى الأغلب يرجع الدارسون والمؤرخون مولد الخنساء سنة 575 م.[4]

---

[1]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص05.

[2]- ينظر: أحمد سويلم، شعراء العرب، الأسماء والألقاب والكنى، ص 62.

[3]- قصي الخولي، شعر الجاهلية وشعراؤها، ص325.

[4]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص05.

3-2- حياتها وإسلامها:

كانت **الخنساء** أصغر من أخويها **صخر ومعاوية**، لأن المستشرق غبريالي جعل مولد **صخر** عام 565م، بينما مولد **معاوية** 570، مستندا إلى رواية الأصمعي التي يورد فيها خبر حضور والدها إلى سوق عكاظ مع ولديه في السنة الخامسة والثلاثون من عام الفيل، فباعوا أرضا لهم في يثرب إلى **معمر بن الحارث** جد الشاعر **جميل بثينة**، وأن عقد البيع بقي محفوظا لدى أبناء معمر حتى زمن **هارون الرشيد**. وانطلاقا من هذه الرواية فإن زمن شبابها يكون في حدود 577م و605م، لأن عام الفيل لم يتقدم السنة 570م، ولم يتأخر عن سنة 542م.[1]

كانت الخنساء في عز صباها وفتوتها حين خطبها **دريد بن الصمة** من أبيها وهو شيخ، وقد رحب به والدها **عمرو بن الحارث**، رغم معرفته بتقدم سنه، وأن ابنته سترفضه لذلك، غير أنه آثر أن يسمع جواب طلبه من **الخنساء** نفسها، فما كان منها إلا أن ردته وقالت:

أتراني تاركة بني عمي كأنهم عوالي الرماح ومرتثة شيخ بني جشم، فحزن **دريد** وأنشد:[2]

حَيُّوا تُمَاضُر وارْجِعُوا صَحْبِي وَقِفُوا فَإِنَّ وُقُوفَكُم حَسْبِي

أَخْنَاسُ قد هَامَ الفُؤَادُ بِكُمُ وأَصَابَهُ تَبْلٌ مِنَ الحُبِّ

ولم يطل بها زمن طويل بعد ذلك حتى خطبت لـــ **رواحة بن عبد العزيز السلمي** ، الذي مات دون أن تلد منه. فسارع عبد الله بن عبد العزى من بني خفاف فتزوجها، وولدت له ولد هو **عمر** وكنيته **أبو شجرة**، ويدعى أيضا **عبد الله**

[1]- ينظر: قصي الخولي، شعر الجاهلية وشعراؤها، ص 426-427.

[2]- ينظر: أحمد سويلم، شعراء العرب، الأسماء والألقاب والكنى، ص62.

وكان أول أولادها ووحيد زوجها الأول، وقد استنتج المؤرخون أن ولادته كانت سنة 593م.

أما أبناؤها من زوجها الثالث وهو **مرداس بن أبي عامر السلمي** ، فهم : **يزيد ومعاوية وحزن وعمرو وسراقة وعمرة**، وقد حارب أربعة من أولادها يوم القادسية سنة 637 م، وقتلوا جميعا، حيث رجح الدارسون أن زواجها الثالث كان عام 612 م.[1]

يذكر الدارسون والباحثون أن **الخنساء** أقبلت على **الرسولصلى الله عليه وسلم** في وفد من المسلمين بينهم **العباس بن مرداس** الشاعر، والذي يشتبه أنه ابنها من زوجها **مرادس بن أبي عامر السلمي**، وذلك سنة 8 هجري (629-630م)، فأسلموا جميعا.

وحتى بعد اسلامها فحزنها على أخويها **صخر ومعاوية** بقي ملازما لها لم يفارقها. وقد ذكر ا **بن قتيبة** في حديثه عن الخنساء، أنها لما حلّت بالمدينة، زارت **عائشة** زوجة **الرسول صلى الله عيله وسلم** وعليها صدار أسود من الشعر، وكانت حليقة الرأس تدب على عصا لتقدمها في السن، فقالت لها **عائشة:** أخناس"، فقالت :" لبيك أماه ". فقالت :" أتلبسين الصدار، وقد نهي عنه في الإسلام ؟" فقالت:"لم أعلم"،قالت:"مابلغ بك ماأرى؟"،قالت :"موت أخي صخر"[2].

ومن أخبار الخنساء في الإسلام، أنها حضرت وقعة القادسية عام 637 م، وأوصت أولادها الأربعة أن يجاهدوا فيها حتى الموت، فحفظوا وصيتها وقاتلوا حتى قُتِلوا كلهم، فلما بلغها الخبر قالت:" الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجوا من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمتهم".

---

[1]- ينظر: قصي الحسين، شعر الجاهلية وشعراؤها، ص427-428.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 430.

وتقول الروايات أن الخليفة **عمر بن الخطاب** كان يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد مائة درهم، حتى آخر أيام حكمه.[1]

3-3- مكانتها وشعرها :

تعتبر الخنساء من أعظم شواعر العرب، ومما يروى أن **النابغة** كان تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، ويوما أنشده **الأعشى** أبو **البصير** ، ثم أنشده **حسان بن ثابت** ثم الشعراء، ثم أقبلت **الخنساء** فأنشدته، فقال لها **النابغة:** والله لولا أن **الأعشى** أنشدني آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فاحتج **حسان** على ذلك وقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك، فأمسكه **النابغة** من يده وقال له: يا ابن أخي إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي [2]:

فَإنَّك كَاللَيْلِ الذي هُوَ مُدْرِكِي وَإنْ خِلْتُ أنَّ المنتأى عَنْكَ وَاسِع

" وقد أجمع الشعراء على أنه لم تكن إمرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، وقيل لـ**جرير**: من أشعر الناس؟ قال: أنا لولا هذه الخبيثة (يقصد الخنساء).

قال **بشار**: لم تقل امرأة قط شعرا إلا تبين الضعف فيه، فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ قال: تلك فوق الرجال"[3].

وقدَّم **الأصمعي** ليلى الأخيلية، قال المبرد: كانت الخنساء وليلى بائنتين في أشعارهما، متقدمتين لأشهر الفحول، وقلما رأيت امرأة تتقدم في صناعة وإن قلَّ ذلك.

---

[1]- ينظر: المرجع السابق نفسه، ص431.

[2]- ينظر: أحمد سويلم، شعراء العرب، الأسماء والألقاب والكنى، ص 62-63.

[3]- عيسى ابراهيم السعدي، جماليات الشعر العربي، ص 234.

ويقول **ابو زيد: ليلى** أكثر تصرفا وأغزر بحرا وأقوى لفظا، **والخنساء** أذهب عمودا في الرثاء[1].

3-4- وفـــاتها:

الخنساء " عظيمة شاعرات الجاهلية، مخضرمة، شهرت برثاء أخويها **صخر ومعاوية**"[2]، وقد كان **صخر** أخو **الخنساء** لأبيها فقط و **معاوية** أخا لأبيها وأمها. وكان **صخر** أحبهما إليها لأنه كان حليما جوادا محبوبا في العشيرة شريفا في قومه[3]. وأصبحت من شعراء الرثاء المتقدمين، تقول في رثاء **صخر**[4]:

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلا تَجْمُدَا أَلا تَبْكِيَانِ لِصَخْر النَّدى

أَلا تَبْكِيَانِ الجَرِيءَ الجَمِيلَ أَلا تَبْكِيَانِ الفَتَى السَّيدَا

فقد كانت فاجعتها بأخويها **صخر ومعاوية** كبيرة تركت جرحا عميقا في نفسها لا يندمل، ولم يستطع حتى الزمن ومرور الأيام والسنين من مداواته، فعاشت في ألم وحسرة تنشد قصائد طوال في رثاء **صخر** حتى وفاتها سنة 644 م [5].

---

[1]- ينظر: المرجع السابق نفسه، ص 234.

[2]- علي شلق، الشم في الشعر العربي، ص291.

[3]- ينظر: لويس شيخو اليسوعي، أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، ط1، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1896، ص11.

[4]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص32.

[5]- المصدر نفسه، ص 05.

4- الرثـــــــــــــاء عند الخنـــــــساء:

بلغت **الخنساء** أقصى مراتب الشهرة برثائها الحزين ونجيشها المؤلم، ولوعتها التي لا تنقضي، وقد ملأت الدنيا انتحابا ودموعا وعويلا، وأثرت بأشعارها في قلب كل موتور حزين، فعبرت بكلماتها الرقيقة أصدق تعبير عن مرارة الفقد، وألم الموت، وصورت التجربة الإنسانية المؤلمة أدق تصوير، فكان شعرها خالدا نحسه، ونتجاوب معه، ونتأثر به.

كثيرة هي القصائد التي نظمتها **الخنساء** في أخويها **صخر ومعاوية**، وخاصة ما نظمته في أخيها **صخر**، ربما لما له من مكانة في نفسها بحكم أخوتها له من أبيها، وربما لما عرف عن شهامته وكرمه وسماحته بين قومه، وللتعرف أكثر عن هذه العلاقة، علاقة الأخت بأخيها، نقوم بدراسة وتحليل بعض النماذج الشعرية **للخنساء** حتى نتعرف على سمات وخصائص الرثاء عند هذه الشاعرة المجيدة .

كان النعي باعثا مهما في شعر الرثاء، حيث تصنف المرثيات كلها تحت قصائد الرسالة والإعلان، فكل قصائد الرثاء عبارة عن رد فعل لخبر الموت، " فمن المؤكد أن قسما كبيرا من قصائد الرثاء قد نشأ من نياحة النساء، التي تعد أيضا طقوس الموتى"[1]، وقد نظمت **الخنساء** قصائد عدة في أخيها **صخر** الذي مات حسب الرواية بعد سقم طويل، طبقا لها تلقت الإبلاغ عن الموت من خلال ناعي الموت، وربما كان التعبير الموجود لدى **الخنساء** تأكيدا على ذلك[2]:

لقد صَوَّتَ النَّاعِي بِفَقْدِ أَخِي النَّدَى نِدَاءً لَعَمْري لا أُبَالِكَ يُسْمَعُ

فَقُمْتُ وقد كَادَتْ لرَوْعَةِ هَلْكِهِ وفَزْعَتِهِ نَفْسِي مِنَ الحُزْنِ تتبع

[1]- إيفالد قاجز، أسس الشعر العربي الكلاسيكي- الشعر العربي القديم-، تر: سعيد حسن البحيري، ص 197.

[2]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص94.

إليه كَأَنِّي حُوبَة وَتَخَشعا أَخُو الخَمْرِ يَسْمُو تَارَةً ثُمَّ يُصْرَعُ[1]

فالشاعرة في هذه الأبيات تصف فاجعتها وهول صدمتها بخبر موت أخيها **صخر** الذي جاء على لسان الناعي، فاهتزت نفسها لشدة الخبر وأصابتها روعة جعلت قواها تخور وأصبحت ساقيها لا تقوى حتى على حملها، فإذا بها كالسكران في خطواته المتعثرة لا يبلغ المكان أو الوجهة التي يريد إلا بعد جهد وعناء ومشقة.

" لا شك أن الإبلاغ عن الموت كان وجهة نظر يمكن أن يفتتح بها المرء قصيدة الرثاء، وهي إحدى ما كان قد صار عرفيا بقوة إلى حد أن المرء يمكنه أن يتجاهل معها الواقع."[2]

لعل أهم ما يميز الرثاء عند الخنساء هو شيوع المطالع البكائية في مراثيها، والتي جاءت تلبية لحاجة ذهنية ونفسية دالة على مشاعر وأحاسيس الخنساء، ومن هذه المطالع قولها [3]:

يا عَيْنُ مَالَكِ لا تَبْكِينَ تسكَابَا إِذْ رَابَ دَهْرٌ، وَكَانَ الدَّهْرُ رَيَّابَا

فابْكِي أَخَاكِ لأَيْتَامٍ وأَرْمَلَةٍ وابكي أَخَاكِ، إذا جَاوَرتِ أَجْنَابَا

وابْكِي أَخَاكِ بِخَيْلٍ كَالْقَطَا عصبا، فقدْنَ، لَمَّا ثَوَى، سِيبَا وأَنْهَابَا

يَعْدُو بِهِ سَابِحَ، نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ، مُجَلْبَبٍ بِسَوَادِ اللَّيْلِ جِلْبَابَا[4]

فالصورة الأولى التي تلقانا في مراثي الخنساء تتمثل في ندب الموتى والنواح عليهم وبكائهم، ويبدو فيها طغيان مشاعر الراثية وإحساسها بالفجيعة على المرثي، أي أن صورة المرثي تظهر من خلال مشاعر الراثية التي تجسدها في

---

[1]– أخو الخمر: السكران. يسمو: يقوم وينهض.

[2]– إيفالد قاجز، أسس الشعر العربي الكلاسيكي، تر: سعيد حسن البحيري، ص197.

[3]– الخنساء، ديوان الخنساء،ص 11.

[4]– فرس نهد المراكل: أي واس الجوف عظيم الصدر.

صورة الحزن والأسى والبكاء عليه، وهذا وليد العواطف الداخلية للشاعرة اتجاه المرثي باعتبار هذا اللون يعكس وقع الصدمة الشديدة على الشاعرة جراء فقدها لأخيها صخر ما ينعكس على نحو مأساوي في تعبيرها الشعوري.

والخنساء وهي ترثي صخرا، تمدح فيه الشجاعة والكرم والزعامة في مجلس الشورى و في غارات القيام بالثأر وصور الإهتمام به، أي كل فضائله هي الفضائل التي ترد في الفخر بزعيم القبيلة ومدحه أيضا[1].

والخنساء في موضع آخر ترثي صخرا وتنعي المجد والجود، لأنهما ماتا بموته، وذهبا بذهابه فتقول [2]:

وَقَائِلِينَ تَعَزِّي عَنْ تَذَكُّرِهِ فَالصَّبْرُ ليس لأَمْرِ اللهِ مَرْدُودُ

يا صَخْرُ قد كُنْتَ بَدْرًا يُسْتَضَاءُ بِهِ فقد ثَوَى يوم مُتَّ المَجْدُ والجُودُ

ومما له صلة بالحماسة الرثاء، فقد كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية يثيرون بها قبائلهم لتأخذ بالثأر، وللمرأة نصيب في ندب الميت وبكائه، والخنساء لها قصب السبق في ذلك[3] .

ومن روائع ما ندبت به صخرا:[4]

يا صَخْرُ وَرَّادُ مَاءٍ قد تَنَاذَرَ أَهْلُ المَوَارِدِ ما في وِرْدِهِ عَارُ

مَشَى السَّبَنْتَى إلى هَيْجَاءَ مُعْضلَةٍ له سِلاحَانِ أَنْيَابٌ وأَظْفَارُ

وما عَجُولُ على بو تَطِيفُ بِهِ لها جَنِينَانِ إعْلانٌ وإسْرَارُ

---

[1]- المصر السابق نفسه، ص 192.

[2]- المصر السابق نفسه، ص 45.

[3]- ينظر: سامي يوسف أبو زيد، الأدب الجاهلي، ص92.

[4]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص50.

والخنساء في هذه الأبيات تعدد صفات صخر وخصاله، فما تدعو مكرمة إلا وصفته بها، فهو أشجع الناس، وأجودهم، وأجملهم وأعفهم، ومما يزيد رثاءها حسنا أن مدحها لصخر مشبع بصدق اللهجة والعاطفة معا مصحوبا بالتفجع في جميع أقسامه. ولعل الغلو ظاهرة تميز الرثاء عند الخنساء، فهي مغالية في حزنها وتفجعها، مغالية فيما تصف به صخرا من صفات حسنة، ولكنه غلو صادق من حيث شدة لوعتها وتفجعها وبريء من حيث وصفها لأخيها.

ونتبين إعجابها الشديد بأخيها، عندما تصف شجاعته فتصوره أسدا تاما بأنياب وأظفار، شثن البراثن، لاحق الأقراب. أو تصف جوده، فتجعله مأوى اليتيم، ووجهة المحتاج، أو تصف جماله، فهو البدر في صورته ومحياه[1].

ففي البيت الأول تتحدث الشاعرة عن إقدام صخر في الحرب وإقباله على ساحة الوغى، أما في البيت الثاني فتصف شجاعته، والسبنتى والسيندى واحد وهو الجريء الصدر، وأصله في النمر، أما الهيجاء فتعني الحرب[2].

وتستطرد الخنساء في وصف صخر وتعداد شمائله وخلاله، فنجدها تقول في نفس القصيدة [3]:

وإنَّ صَخْرًا لَوَالِينَا وسَيدُنَا وإنَّ صَخْرًا إذا نَشْتُو لَنَحَّارُ

وإنَّ صَخْرًا لَمِقْدَامٌ إذا رَكَبُوا وإنَّ صَخْرًا إذا جَاعُوا لعَقَّارُ

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نَـــــارُ

جلد جَمِيلُ المُحَيَّا كَامِل وَرِع وللحُرُوبِ غَدَاةَ الروع مِسْعَارُ

[1]- ينظر: بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص232.

[2]- ينظر: المبرد (ابي العباس محمد بن يزيد)، الكامل في اللغة والأدب، ج4، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص 48.

[3]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص51.

حَمَّالُ أَلويَةٍ هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ للجَيْشِ جَـــرَّارُ

نَحَّارُ رَاغِيَةٍ مِلْجَاءُ طَاغِيَةٍ فَكَّاكُ عَانِيَةٍ للعَظْمِ جَـــبَّارُ

فالخنساء لا يقتصر غلوها على المعاني وما فيها من صور بارزة، بل نجد ذلك في ألفاظها أيضا، فأكثر ما يكون لفظها في صيغ المبالغة التي تترك أثرا محسوسا في النفس. ومن ذلك قولها: شَهَّاد أندية، حَمَّال ألوية، هَبَّاط أودية، نَحَّار، مِسْعَار، إلى غير ذلك من أمثلة المبالغة. أما قولها " كأنه علم في رأسه نار" فالعلم الجبل، قال عز وجل :{ **وَلَهُ الجَوَارِي المُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كالأَعْلامْ}*** [1] .

ويتبين لنا هنا أن رثاء الخنساء عاطفي بحت، لا تكلف فيه، فهي حزينة ضعيفة، ونادبة تهيج البواكي، وتستحث قومها على الثأر، وتثير فيهم الحماسة والنخوة بذكر مناقب أخيها، وإذا خطر لها أن تتأسى شيئا، فلكي تمنع نفسها عن الإنتحار، لا عن التفجع والبكاء[2].

ولعل حزن الخنساء أخرجها من رشدها، فتتمنى لو أن السماء أطبقت على الأرض وهلك الناس جميعا بعد موت صخر، أو قد يغشى الدنيا سواد بحيث أصبح الكون في نظرها عاتما بكسوف الشمس واضطراب القمر، فبدى كأن كل شيء يبكي على وقع هذه الصدمة، فتقول [3]:

والشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لِمَهْلَكِهِ وَمَا اتَّسَقَ القَمَرْ

وإلإنْسُ تَبْكِي وَلَهَا والجِنُّ تَسْعَدُ مِنْ سَمَرْ [4]

---

*- الرحمان/آية 24./ [1]- ينظر: المبرد، الكامل، ج4، ص48.

[2]- ينظر: بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص233.

[3]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص67.

[4]- الوله: الحزين

والوَحْشُ تَبْكِي شُجُوَّهَا لَمَّا أَتَى عَنْهُ الخَبَرْ

إنه هول الصدمة ووقعها العميق في نفس الخنساء ما جعلها تشعر أن الحياة لا معنى لها بعد صخر، وأن الكون بأسره يبكيه ويتحسر على فقده.

والخنساء بين مرثية وأخرى نراها تندب وتنوح على ما خسرته، فنجدها في كل مرة تئن من الألم الذي يعتصر فؤادها، ولعلها تصور فزعها وجزع أهلها وقبيلتها على أشجع فرسانها وأحد سادتها، فنرى الخنساء في مراثيها تصف لنا حالها وحال من حولها وما بلغ بهم من شؤم وحزن بعد موت صخر[1].

وربما كانت لها عدة مراثي حافلة بالمشاعر الإنسانية التي تعكس عمق إحساسها بفقد صخر مثل ما نجد في قولها[2]:

لَـهْـفِي على صَخْرٍ فَإِنِّي أَرَى لَهُ نَوَافِلَ مِنْ مَعْرُوفِهِ قد تَوَلَّتْ

ولَـهْفِي على صَخْرٍ لقد كَانَ عِصْمَةً لِمَوْلاهُ إِنْ نَعْلٌ بِمَوْلاهُ زَلَّتْ

وفي نظرنا أن شعر الخنساء على عهد قريب من موت صخر، طغى عليه سمات النواح، وكانت فيه الشاعرة حزينة متحسرة ومصدومة لشدة مصابها وكادت أن تكون أغلب قصائدها شكلا من أشكال الندب والعويل، تكرر فيها نفس الألفاظ والمعاني، وتميل بشدة إلى المبالغة في الحزن وذكر المناقب بأسلوب تغلب فيه العاطفة القوية.

أما في الفترة الثانية من حياتها وبعد مرور سنوات على موت صخر، فلم يطبعها هدوء وسكينة وراحة بال، بل ما لبثت أن عاودها الحزن مرة بعد مرة، فتستوقد

[1]- ينظر: قصي الحسين، شعر الجاهلية وشعراؤها، ص 435.

[2]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص21.

شاعريتها وآلامها لفقد أخويها خيرة شباب مضر فتعود للتعبير عن كل ذلك في شعرها[1].

وقدم العزاء أيضا معرفة بأن المرء لم يألم وحده، فقد نظمت الخنساء قائلة[2]:

وَلَولا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي على إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

ومن حسن شعرها قولها[3]:

أَعَيْنَيَّ جُودَا ولا تَجْمُدَا ألا تَبْكِيَانِ لِصَخْر النَّدَى

ألا تَبْكِيَانِ الجَرِيءَ الجَمِيلَ ألا تَبْكِيَانِ الفَتَى السَّيدَا

طَويلُ النِّجَادِ رَفِيعُ العِمَادِ سَادَ عشيرتَهُ أَمْرَدَا [4]

إذا القَومُ مَدُّوا بِأيْدِيهِمْ إلى المَجْدِ مَدَّ إليهِ يَدَا

فَنَالَ الذي فَوقَ أَيْدِيهِم من المَجْدِ ثم مَضَى مصعدَا

يُكَلِّفُهُ القَوْمُ ما عَالَهُم وإن كَانَ أَصْغَرَهُم مَوْلِدَا

وفي هذه الأبيات ترثي الخنساء صخرا وتعدد صفاته، ففي قولها (طويل النجاد)، فالنجاد هي حمائل السيف، وتريد بطول نجاده طول قامته، وهذا ما يمدح به الشريف، كقول جرير:

فإني لأرضى عبد شمس وما قضت وأرضى الطوال البيض من آل هاشم

---

[1]- ينظر: قصي الحسين، شعر الجاهلية وشعرائها، ص437

[2]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص87.

[3]- المصدر نفسه، ص32.

[4]- أي أنه سيد القوم ولو كان أصغرهم سنا.

وقول رجل من طيء:

جدير أن يقل السيف حتى ينوس إذا تمطىء في النجاد

وقال أبو نواس:

سبط البنان إذا احتبى بنجاده غمر الجماجم والسماط قيام

وقولها (رفيع العماد) إنما تريد الطول الممشوق، يقال: رجل معمد أي طويل، ومنه قوله تعالى:**<< إِرَمَ ذَاتِ العِمَادْ >>**[1]، أي الطوال .

وقولها (ماعالهم) أي ما نابهم ونزل بهم وحل، تقول العرب: ما عالك فهو عائلي، أي ما نابك فهو نائبي[2]، ومن ذلك قول كثير:

ياعَيْنُ ابْكِي للذي عَالَنِي مِنْكِ بِدَمْعٍ مُسبل هَامِلِ

ومن جيد شعرها قولها[3] :

أَبَعْدَ ابن عَمْرو مِنْ آلِ الشرِّيدِ حَلَّتْ بِهِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا [4]

فَآليْتُ آسَى على هَالِكٍ وأَسْأَلُ بَاكِيةً مَالَهَا

لَعَمْرُ أَبيكَ، لَنِعْمَ الفَتَى تحش بِهِ الحَرْبُ أَجْذَالَهَا [5]

حَدِيدُ السِّنَانِ ذَلِيقُ اللِّسَانِ يُجَاري المقَارِض أَمْثَالَهَا [6]

هَممْتُ بِنَفْسِي كل الهُمُومِ فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا

---

[1]- الفجر/ آية 07.

[2]- ينظر: المبرد، الكامل، ج4، ص50.

[3]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص123-124.

[4]- حلّت: زينت

[5]- تحش: توقد. الأجذال: جمع جذل: أصول الشجر

[6]- ذليق اللسان: طليقه. المقارض: جمع المقراض: ما يقرض أي يقطع. تريد أن لسانه كالمقراض.

قولها (حلت به الأرض أثقالها) أي تزينت، فحلت من الحلي، وتقصد زينت به الأرض الموتى، وقال المفسرون في قوله عز وجل: **<< وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا>>**[1]، قالوا: الموتى[2].

وقولها (لنعم الفتى إذا النفس أعجبها مالها): تقصد أنه يجود بما هو له في الوقت الذي يؤثره أهله على الحمد.

والشوامخ هي الجبال، والشامخ : العالي.

أما قولها (فأولى لنفسي أولى لها)، يقول الرجل إذا حاول شيئا فأفلته بعد أن كاد يصيبه: أولى له، وإذا أفلت من عظيمة قال: أولى لي، وأنشد لرجل يقتنص، فإذا أفلته الصيد، قال: أولى لك، فكثر ذلك منه فقال:

فَلَوْ كَانَ (أَوْلَى) يُطْعِمُ القَوْمَ صدتهم ولَكِن (أَوْلَى) يَتْرُك القَوْمَ جُوَّعَا

وتبرز الشجاعة والبطولة في مرثيات الخنساء بصورة كبيرة من خلال إسقاطها لهاته الصفات على أخيها صخر، والتي تتلاقى وتتداخل بصورة كبيرة مع الجود والكرم والعطاء، وما كانت الخنساء لتجعل اسم صخر مرادفا يقابله الكرم وحسن الضيافة إلا لتلك المواقف الحميدة التي وقفها صخر معها وإجابته لسؤالها، وقضائه لحاجتها وطلبها كلما احتاجت إليه، ما زرع في نفسها اجلالا واكبارا له وتعلقا شديدا به[3]. وهذا ما يتجلى واضحا من خلال قولها[4]:

السَّيدُ الجحْجَاحُ وابْنُ السَّادَةِ الشم الجَحَاجِح[5]

---

[1]- الزلزلة/ آية02.

[2]- ينظر: المبرد، الكامل، ج4، ص 50-51.

[3]- ينظر: رعد أحمد علي الزبيدي، في الشعر الجاهلي، ص198.

[4]- الخنساء، ديوان الخنساء، ص23-24.

[5]- الجحجاح: السيد الكريم

الحَامِلُ الثَّقيلَ المُهِم من المَلَمَّاتِ الفَوَادِحِ[1]

الجَابِرُ العَظْمَ الكَسِيرِ من المهَاصِرِ والمُمَانِحِ[2]

الواهِبُ المِئَةَ الهِجَانَ من الخَنَاذِيذِ والسَّوابِحِ[3]

الغَافِرُ الذَّنْبَ العَظِيمَ لِذِي القَرَابَةِ والمُمَالِحِ[4]

بِتَعمد مِنْهُ وحِلْمٍ حينَ يَبْغِي الحِلْمَ رَاجِحِ

ذلِكَ الذي كُنَّا بِهِ نَشْفِي المرَاضَ مِنَ الجَوَانِحِ[5]

ويَرُدُّ بَادِرَةَ العَدُوِّ ونَخْوَة الشَّنْقِ المُكَاشِحِ[6]

وقد شعرت الخنساء أنه بموت صخر اهتزت دعائم مجدها ومجد أسرتها، وغشى الدنيا ظلام دامس لا نهاية له، فهي تريد دموعا تعبر عن هذا كله، ولكنها لا تجد، وترغب حزنا حقيقيا دائما على صخر ليكون وسيلة تبرر بها عما في نفسها أمام المجتمع، ولكنها لا تجد، فأخذت تلح وتتكلف طلب البكاء، وإذا نظرنا في مطالع قصائدها نتبين ذلك الإلحاح ومدى إصرارها عليه وتكرار طلبها مرة بعد مرة[7]، فهي في قصيدة واحدة مثلا تعاقب عينها على عدم سكب الدمع، وتكرر طلب البكاء منها فتقول[8]:

---

[1]– الفوادح: الثقيلة.

[2]– الممانح: المعطاء.

[3]– الخناذيذ: الطوال المشرفة. السوابح: التي تسير كأنها تسبح.

[4]– الممالح: من أكلت معه

[5]– الجوانح: الأضلاع تحت الصدر.

[6]– المكاشح: المعادي.

[7]– ينظر: عبد الحليم حفني، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية،(د.ط)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د.ت)، ص224.

[8]– الخنساء، ديوان الخنساء، ص11.

ياعَيْنُ مَالَكِ لا تَبْكِينَ تسْكَابَا إذا رَابَ دَهْرٌ، وكَانَ الدَّهْرُ رَيَّابَا

فابْكِي أَخَاكِ لأيْتَامٍ وأَرْمَلَةٍ وابْكِي أَخَاكِ إذا جَاوَرْتِ أَجْنَابَا

وابْكِي أَخَاكِ لِخَيْلٍ كَالْقَطَا عصبا فقدْنَ لَمَّا ثَوَى سيبا وأَنْهَابَا

وفي مطلع آخر تقول[1]:

ياعَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ مَسْكُوبٍ كَلُؤْلُؤٍ جَالَ في الأمْسَاطِ مَثْقُوبَا

وقولها أيضا[2]:

أَعَيْنُ ألا فَابْكِي لصَخْر بدرة إذا الخَيْلُ مِنْ طُولِ الوَجِينِ اقْشَعَرَّت

وتقول[3]:

ألا يا عَيْنُ فانْهَمِرِي، وقُلْتُ لِمَرْزَأَةٍ أُصِبْتُ بها تَوَلَّت

ألا يا عَيْنُ وَيْحَكِ أَسْعِدِيني فقد عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُ وَجَلَّت

وتقول أيضا[4]:

يا عَيْنُ جُودِي بالدُّمُوعِ المُسْتَهَلاَّتِ السَّوَافِحِ

وابْكِي لِصَخْر إِذْ ثَوَى بَيْنَ الصَّرِيحَة والصَّفَائِحِ

[1]– المصدر السابق نفسه، ص 17.

[2]– المصدر السابق نفسه، ص19.

[3]–المصدر السابق نفسه، ص22.

[4]– المصدر السابق نفسه، ص23.

وتقول معاتبة عينيها[1]:

أَعَيْنَيَّ جُودَا ولا تَجْمُدَا ألا تَبْكِيَانِ لِصَخْر النَّدَى ؟

ألا تَبْكِيَانِ الجَرِيء الجَمِيلَ ألا تَبْكِيَانِ الفَتَى السيدَا ؟

وتقول مخاطبة عينيها، ومخاطبة أيضا المجتمع ليبكي[2]:

أَعَيْنَيَّ جُودَا بالدُّمُوعِ على صَخْر على البَطَلِ المِقْدَامِ والسَّيدِ الغَمر

لَيْتك عليه مِنْ سَلِيم جَمَاعَةٌ فقد كَانَ بَسَّامًا ومُحْتَضِرَ القَدْرِ

وتقول[3]:

ألا أَبْكِي على صَخْر وصَخْرُ ثمَالنَا إذا الحَرْبُ هَرَّتْ واسْتَمَرَّ مَرِيرُهَا [4]

وهي تصرح بخروجها من دائرة الحزن إلى الهدف الإجتماعي فتقول[5]:

بَنِي سلِيم ألا تَبْكُونَ فَارِسَكُم؟ خَلَّى عَلَيْكُم أُمُورًا ذَاتَ أَمْرَاس [6]

ويتكرر في كثير من مطالع قصائد الخنساء طلب الدموع والبكاء من عينيها، وتكرر أيضا الحديث عن الحزن والذل وهو المحور الرئيسي وسبب كل احزان الخنساء في مراثيها، فهي تشعر أنه بموت صخر اهتزت دعائم مجد الأسرة

---

[1]- المصدر السابق نفسه ، ص32.

[2]- المصدر السابق نفسه، ص78.

[3]- المصدر السابق نفسه، ص83

[4]- ثمال: عصمة القوم ومعتمدهم. استمر مريرها: قويت واشتدت.

[5]- المصدر السابق نفسه، ص86.

[6]- ذات أمراس: ذات شدة وبأس.

والقبيلة دون وجود بديل له، فهي تشعر أن انهيار هذا المجد شكل من أشكال الذل الاجتماعي، ويدفعها إلى توقع الذل والمهانة في مستقبلها[1].

تعتبر الخنساء من أبرز شواعر العرب في الرثاء خاصة، والمتأمل في رثائها يجده يدور في محورين رئيسيين:

أولهما: بكاء ونواح وعويل على الميت وهذا الضرب في الرثاء يعرف بـ(الندب).

وثانيهما: الثناء على الميت وتعداد مناقبه ومحامده وهو ما يعرف بـ(التأبين).

وتجدر بنا الإشارة هنا أن هذين المحورين متداخلان في أغلب مراثي الخنساء، لا يمكن فصلهما، فهي تستهل مرثياتها ببكاء المرثي والتفجع عليه وسرعان ما تنتقل إلى ذكر فضائله وتعداد محاسنه مآثره.

ونجد محور آخر تتجه فيه الشاعرة إلى التفكر في رحلة الحياة ومصير الناس وحتمية الأقدار وضعف الانسان أمام نوائب الدهر ومصائبه، وهذا الضرب يعرف بـ(العزاء) والخنساء في كل هذا لا تخرج عن الإطار العام لشعر الرثاء في العصر الجاهلي بأنواعه وأساليبه المعروفة[2].

[1]– ينظر: عبد الحليم حفني، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، ص229.

[2]– ينظر: يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي– خصائصة وفنونه–، ط.4، مؤسسة الرسالة، لبنان–بيروت، 1983، ص311–315.

5- موازنة بين المهلهل والخنساء في غرض الرثاء (موضوعاتيا):

انطلاقا من دراستنا وتحليلنا بعض النماذج الشعرية للمهلهل بن ربيعة والخنساء، يمكننا أن نقوم بموازنة بينهما لمعرفة أوجه التلاقي وأوجه الاختلاف بين أشعارهما، وكذلك حتى نتعرف أكثر على سمات وخصائص شعر كل منهما.

5-1- أوجه التلاقي:

- لعل أهم سمة بارزة ومشتركة بين المهلهل والخنساء هي تخصصهما في غرض الرثاء، فأكثر أشعارهما هي في الرثاء دون باقي الأغراض الشعرية.

- نقطة أخرى يشترك فيها الشاعر والشاعرة هي من حيث طبيعة علاقتهما بالمرثي، وهي علاقة الأخوة، فالمهلهل في قصائده يرثي أخاه كليبا، والخنساء ترثي أخاها صخرا.

- نجد أيضا أن كل من الشاعر والشاعرة من نسب شريف ومن أشراف قومهما، وكذلك من رثوهما، وهذا ما انعكس بقوة في اشعارهما.

- تلقي الشاعر والشاعرة خبر موت أخويهما من الناعي، وكما ذكرنا سابقا فقد كان النعي باعثا مهما وشائعا في شعر الرثاء، وأن قصائد الرثاء هي رد فعل لخبر الموت. يقول المهلهل:

نَعَى النُّعَاةُ كُلَيْبًا لي فَقُلْتُ لَهُمْ مَادَتْ بنا الأَرْضُ أم مَادَتْ رَوَاسِيهَا

ويقول أيضا:[1]

لَمَّا نَعَى النَّاعِي كُلَيْبًا أَظْلَمَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فما تُرِيدُ الطُّلُوعَا

أما الخنساء فتقول:

[1]- مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرحه: طلال حرب، ص48.

لقد صَوَّتَ النَّاعِي بِفَقْدِ أَخِي النَّدَى نِدَاءً لَعَمْرِي لا أُبَالِكَ يُسْمَعُ

– إظهار التلهف والاستعظام والتفجع ما يعكس قوة الصدمة وهول الامر وعظمته في نفس الشاعر والشاعرة بعد موت الأخ، يقول لمهلهل:

يا لَهْفَ نَفْسِي مِنْ زَمَانٍ فَاجِعٍ أَلْقَى عَلَيَّ بِكَلْكَلٍ وجِرَانِ

بِمُصِيبَةٍ لا تُسْتَقَالُ جَلِيلَةٍ غَلَبَتْ عَزَاءَ القَوْمِ والنِّسْوَانِ

وتقول الخنساء:

لَهْفِي على صَخْرٍ فَإِنِّي أَرَى لَهُ نَوَافِلَ مِنْ مَعْرُوفِهِ قَدْ تَوَلَّتْ

ولَهْفِي عَلَى صَخْرٍ لقد كَانَ عِصْمَةً لِمَوْلاهُ إِنْ نَعْلٌ بِمَوْلاهُ زَلَّتْ

– إشراك الطبيعة في الحزن، وسبب ذلك أن الشاعر الجاهلي كان شديد الإرتباط بالطبيعة، يحسه في كل جانب من جوانبه، وأن لهذا الإرتباط امتداد يتعدى الحياة إلى ما بعدها[1]. يقول المهلهل :

نَعَى النُّعَاةُ كُلَيْبًا لي فَقُلْتُ لَهُمْ مَادَتْ بِنَا الأرضُ أم مَادَتْ رَوَاسِيهَا

لَيْتَ السَّمَاءَ على مَنْ تَحْتِهَا وَقَعَتْ وَحَالَتِ الأرضُ فَانْجَابَتْ بِمَنْ فِيهَا

ويقول أيضا:

لَمَّا نَعَى النَّاعِي كُلَيْبًا أَظْلَمَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَمَا تُرِيدُ الطُّلُوعَا

ونجد الخنساء تقول:

والشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لِمَهْلَكِهِ وما اتَّسَقَ القَمَرْ

[1]– ينظر: غازي طليمات وعرفان الأشقر، تاريخ الأدب العربي، الأدب الجاهلي، قضاياه. أغراضه.أعلامه. فنونه، ص205.

وفي قولها[1]:

وزَالَ الكَوَاكِبُ مِنْ فَقْدِهِ وجُلِّلَتِ الشَّمْسُ أَجْلالَهَا

– إسقاط معاني الشجاعة والبطولة وتجسيدها في شخص المرثي، فهو حامي الحمى وناصر الضعيف ومنقذ القوم في الملمات الصعبة، وهي معان تتداخل بصورة كبيرة مع الجود والكرم والعطاء. يقول المهلهل في كليب:

الحَزْمُ والعَزْمُ كَانَا مِنْ صَنِيعَتِهِ مَا كُلُّ آلائِهِ ياقَوْمُ أُحْصِيهَا

القَائِدُ الخَيْلَ تَرْدي في أَعِنَّتِهَا زَهْوًا إذا الخَيْلُ بُحَّتْ في تَعَادِيهَا

النَّاحِرُ الكُومَ ما يَنْفَكُّ يُطْعِمُهَا والوَاهِبُ المائَةَ الحَمْرَا بِرَاعِيهَا

أما الخنساء فتقول في صخر:

الحَامِلُ الثقيل المُهم مِنَ المُلِمَّاتِ الفَوَادِحِ

الجَابِرُ العَظْمَ الكَسِيرَ مِنَ المهاصِرِ والمُمَانِحِ

الوَاهِبُ المئَةَ الهِجَانَ مِنَ الخَنَاذِيذِ السَّوَابِحِ

– غياب المقدمة الطللية أو الغزلية، فإن للموت هيبة تقصيه عن الغزل والتفكر في الجمال، غير أننا نجد قصائد قليلة شذت عن هذه القاعدة منها قصيدة **دريد بن الصمة** في رثاء أخيه **عبد الله**[2].

[1]– الخنساء، ديوان الخنساء، ص125.

[2]– ينظر: غازي طليمات وعرفان الأشقر، تاريخ الأدب العربي، الأدب الجاهلي، قضاياه. أغراضه.أعلامه. فنونه، ص205.

وغياب المقدمة الطللية أو الغزلية يشترك بين جميع قصائد الرثاء وليس فقط بين قصائد المهلهل والخنساء، وما يميز قصيدة الرثاء عن باقي قصائد الأغراض هو بناؤها وهيكلها الذي يختلف عن بناء القصيدة الجاهلية المعروف.

– امتزاج الرثاء بالاغراض الأخرى كالحماسة والفخر ووصف الحرب في أكثر الأحيان[1].

– الأسلوب السهل البسيط ومجانبة الغرابة اللفظية، ويرجع ذلك إلى أن حزن الشاعر يقربه من الفطرة، ويبعده عن الصنعة، فيستخدم الألفاظ الشائعة المتداولة وأيسرها على الألسن والتي تترسخ بالأذهان[2].

5– 2–أوجه الإختلاف:

كما وجدنا نقاط تشابه وتلاقي بين المهلهل والخنساء في أشعارهما، هناك أيضا أوجه اختلاف بينهما يتميز وينفرد بها شعر كل منهما عن الآخر، ونذكر أهم أوجه الاختلاف في النقاط الآتية:

– أول اختلاف نذكره هو أن المهلهل رجل والخنساء امرأة، وهذا الاختلاف له تأثير مهم فيما يتعلق بالحالة الشعورية، فنجد أن أغلب قصائد الرثاء عند المهلهل لم تكن رثاء قاصرا على البكاء وحده، وإنما يختلط بالتهديد والأخذ بالثأر والفخر، فأدب المهلهل أدب حماسي بامتياز لما يحمله من معان كثيرة ومتنوعة في الحرب وتصوير للمعارك حية نابضة بأبطالها وخيلها وسيوفها، أما الخنساء فنجد أن السمة الغالبة على شعرها هو صدق العاطفة والتعبير عن الحزن الدفين الذي يدفع بها إلى النواح والندب تارة، وإلى الركون والأنين في صمت تارة أخرى، باعتبار الشاعرة امرأة مفعمة بالعواطف لا تصغي إلا لنبض فؤادها

[1]– ينظر: المرجع السابق نفسه، ص204.

[2]– ينظر: المرجع السابق نفسه، ص204.

الجريح، ولا ترى إلا ما دفن تحت التراب من أخلاق وصفات لطالما كانت في نظرها مثالا للكمال البشري.

– المهلهل شاعر جاهلي والخنساء شاعرة مخضرمة أدركت الاسلام، وتفصل بينهما فترة زمنية طويلة، فالفترة التي عاشت فيها الخنساء تختلف كثيرا عن زمن المهلهل، حيث شهد العرب تغيرات وتطورات كثيرة انعكست على حياة العرب العقلية والنفسية أبرزها ظهور الإسلام والذي كان له تأثير كبير على الشعر.

– بروز العصبية القبلية بقوة في أشعار المهلهل، حيث كانت العصبية من رموز القوة في الجاهلية، وهذا ما نلمسه في قوله :

أَكْثَرْتُ قَتْلَ بني بَكْرٍ بِرَبِّهِمُ حتى بَكَيْتُ وما يَبكي لَهُم أَحَدُ

آلَيْتُ باللهِ لا أَرْضَى بِقَتْلِهِمُ حتى أُبَهْرِجَ بَكْرًا أَيْنَمَا وُجِدُوا

بينما نجد حضور النزعة الدينية بكثرة عند الخنساء، واقتباسها من معاني القرآن، كما في قولها:

أَبَعْدَ ابن عَمْرو مِنْ آلِ الشريد حَلَّتْ بِهِ الأرضُ أَثْقَالَهَا

وتقول في نفس القصيدة[1]:

فَخَرَّ الشَّوامِخُ مِنْ قَتْلِهِ وَزُلْزِلَت الأرضُ زِلْزَالَهَا

– نجد في أشعار المهلهل أن فاجعته وحزنه على أخيه كليب لم يتغير، فحتى مع مرور السنين على موت كليب بقيت عاطفة الشاعر وحرقته وألمه قوي كما كان في أول الأمر، ومن جهة أخرى نجد أن مايميز شعر المهلهل طلب الثأر والإصرار الشديد على أخذه والإقتصاص من قبيلة القاتل، يقول المهلهل:

[1]– الخنساء، ديوان الخنساء، ص125.

خُذِ العَهْدَ الأكِيدَ عَلَيَّ عُمْرِي بِتَرْكي كُلَّ مَاحَوَتِ الدِّيَارُ

وهَجْرِي الغَانِياتِ وشُرْبَ كَأسٍ ولُبْسِي جُبَّةً لا تُسْتَعَارُ

ولَسْتُ بِخَالِعٍ دِرعِي وسَيْفِي إلى أن يَخْلَعَ اللَّيْلَ النَّهَارُ

وإلا أَنْ تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرٍ فلا يَبْقَى لَهَا أَبَدًا أَثَارُ

أما عند الخنساء فنجدها تعزي نفسها و تصبرها، وأنها كما خسرت أخا فهناك أخوات كثيرات مثلها فقدن إخوتهم، وهذا ما يهون عليها فاجعتها ويواسيها في مصابها، تقول الخنساء:

ولَوْلا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي على إخوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وعند قراءتنا لأشعار الخنساء فإننا نلتمس فيه فلسفة الموت، والإحساس بمصارعة الدهر لها مايحفز شاعريتها على الرثاء الذي بدأ بموت أخيها صخر ليتحول إلى موقف بشري من الموت والحياة، وهو موقف يبدو أكثر هدوءا مع إسلامها واستشهاد أبناءها الأربعة، وحمدها لله على استشهادهم ودعوتها أن يجمعها بهم في جنته، فنجد تحول قيمي جاءت به العقيدة، حيث تحولت النفسية الجاهلية الجزعة الثائرة إلى نفس مؤمنة هادئة مطمئنة إلى قدر الموت المحتوم وليس لأنه موت أو قتل، بل لأنه استشهاد، فالموت هنا ليس نهاية مطاف في قبور مظلمة، بل هو بداية طريق إلى جنة عرضها السماوات والأرض يسعد بها الشهداء[1]. تقول الخنساء[2]:

لاشَيْءَ يَبْقَى غَيْرُ وَجْهِ مَلِيكِنَا وَلَسْتُ أَرَى شَيْئًا عَلَى الدَّهْرِ خَالِدَا

[1]– ينظر: مي يوسف خليف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، (د.ط)، دار غريب للطباعة، القاهرة، (د.ت)، ص97.

[2]– الخنساء، ديوان الخنساء، ص34.

المهم عندنا أن الشعراء لم يقتصروا في رثائهم للأبطال على صفة الشجاعة، بل تحدثوا عن كرمهم وأخلاقهم أيضا، وعليه فإن مثل هذا الرثاء يؤدي غرضين:

أولهما: أن الشاعر أراد بيان صفات المرثي، وبيان مدى حزنه عليه.

وثانيهما: أنه فعل ذلك كله من أجل التحريض على الأخذ بالثأر.

خاتمة

خاتمة:

لقد اجتمعت لدينا في تمام هذه الدراسة بعد أن عرضنا بعض ما توزع وتفرق على مراجع أدبية ونقدية ومصنفات ومختارات من مادة شعرية ونقدية، ووقفنا على أبوابها ومكامنها بشيء من البحث والنبش في مضامينها، وتحليلها بغية الكشف عما خفي من متعلقات الشعر والنقد صورة وافية عن هذا الغرض الهام الذي كانت دراستنا له محدودة بعامل الزمان الذي رسمت حدوده في التراث القديم، وكانت دراستنا وبحثنا محصورين في أمهات الكتب القديمة وما دار حولها من دراسات لعلها تجمع أجزاء ذلك العامل وتسلط عليه بصيصا من النور، فكان من أبرز نتائج البحث والدراسة ما يلي:

– غرض الرثاء من أبرز الأغراض الشعرية وأكثرها شيوعا وتداولا على لسان الشعراء، فالرثاء هو الثناء على الشخص بعد موته وذكر مناقبه ومحامده ومحاسنه وتصوير ألم فراقه وفاجعة فقده ومكانته في أهله والفراغ الذي تركه بعد رحيله.

– أصل الرثاء هو نياحة النواحة، فقد كانت النساء يندبن أمواتهن فكن يلطمن الوجوه، ويقرعن الصدور، ويشققن الجيوب، ويقمن المآتم، وقد تطور الرثاء لأقوال سحرية كانت تقال للميت على قبره حتى يرتاح ويطمئن في لحده، فبدأ بمنطوقات سجع موجزة، تحولت إلى رجز ومنه إلى مرثية مكتملة البناء والشكل.

– الرثاء يصور رد فعل الشاعر لتلقيه خبر الموت، وقد اختلفت نظرة الشعراء للموت وتباينت مواقفهم اتجاهه بين متجلد بالصبر وبين مفجوع متحسر يلوم الدهر ونوائبه، فنجد أن السمة البارزة في حديث الشاعر عن الموت هو البعد الفلسفي.

– يتصل الرثاء بالحماسة اتصالا وثيقا لكثرة ما يقع في أيام العرب من حروب وقتل وثأر، ويطلق على بعض قصائد الرثاء اسم " الموثبات" لما تثيره في النفوس من حماس وما تبعثهم فيه من اثارة.

– يتقاطع الرثاء والمدح في جوانب عديدة من حيث ذكر محاسن ومآثر وصفات الشخص، إلا أنهما يختلفان في أن المعني في المدح يكون شخصا حيا أما المعني في الرثاء يكون شخصا ميتا وتسبق فيه تلك الصفات بما يدل على أنها صفات كانت موجودة في ذلك الشخص وهو حي.

– يتناول الرثاء ثلاثة مواضيع رئيسية هي: رثاء الأهل والأقارب، رثاء النفس، رثاء المدن والممالك.

– للرثاء خصائص وسمات تميزه عن باقي الأغراض الشعرية الأخرى وهي: الندب والتأبين والعزاء، وهي في مجملها ترجمة لمشاعر صادقة حقيقية بعيدة كل البعد عن التصنع يعبر عنها الشاعر بأسلوب سهل بسيط لا تكلف فيه.

– هناك مجموعة من الصفات والخصال الحميدة قام الشعراء بذكرها وتكرارها كل مرة في مراثيهم، وهي صفات في الأغلب محمودة عند العرب، وسعى كل عربي أن يتحلى بها، وأن ينعت بها بعد موته.

– يعتبر الرثاء أكثر الأغراض التي برز فيها صوت الشاعرات بقوة مقارنة بباقي الموضوعات، ويرجع ذلك لطبيعة المرأة وميلها للحزن والألم والحسرة.

– عند قراءتنا لشعر الرثاء لم نقع على شعر يرثي فيه الشاعر المرأة، ولعل ذلك يعود إلى أن الرجل امتاز بالقوة والشجاعة والتحمل والصبر عند الشدائد، وكان يرى بكاءه على المرأة انقاصا من قدره وقيمته.

– رثاء المهلهل بن ربيعة لأخيه كليب يجمع بين صدق العاطفة والمشاعر والأحاسيس المخلوطة بالتلهف والأسف والإستعظام وبين التهديد وطلب الثأر والفخر، وقد عبر عن ذلك كله في قصائد وأشعار أوصد لها الدهر وذهل منها الجمهور وصفق لها التاريخ.

– بينت الخنساء في مراثيها عن شاعرية بكائية فذة غنية بالأحاسيس الصادقة والتعبير عن الحزن الدفين، فغلب على شعرها الندب والبكاء والتفجع تارة، والتصبر والركون والأنين في صمت تارة أخرى.

– يلتقي الرثاء عند المهلهل بن ربيعة والخنساء في صدق العاطفة وحرارتها وإظهار التفجع والتلهف والإستعظام، إضافة إلى أن أسلوب كل منهما سهل بسيط بعيد عن الصنعة والتكلف، ويختلفان من حيث الحالة الشعورية فنجده عند المهلهل طلبا للثأر والإصرار عليه وهو ما يعكس صورة العصبية القبلية في العصر الجاهلي، بينما نجد عند الخنساء بكاء وتصبرا وهو ما تعكسه النزعة الدينية الواضحة في أشعارها بعد اسلامها.

هذه أهم النتائج والملاحظات الختامية التي انكشفت لنا خلال رحلتنا البحثية هذه، لنقول في الختام أيضا أن هناك الكثير من النتائج والملاحظات تضمنها البحث في صلبه عزفنا عن ذكرها تفاديا للتكرار.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1- ديوان الخنساء، (د.ط)، عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007.

2- ديوان زهير بن أبي سلمى، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان،(د.ت).

3- ديوان طرفة بن العبد، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

4- ديوان عدي بن زيد العبادي، تح: محمد جبار العيد،(د.ط)، مطبعة الجمهورية، بغداد، العراق، 1965.

5- ديوان عمرو بن كلثوم، شرح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1952.

6- ديوان مالك بن الريب، تر: نوري حمودي القيسي، مجلد 1،(د.ط)،(د.ت).

7- ديوان المهلهل، تر: أنطوان محسن القوال، ط1، دار الجيل، بيروت، 1995.

8- ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، (د.ط)، الدار العالمية،(د.ت).

9- إبراهيم روماني، أسئلة الكتابة النقدية، (د.ط)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1992.

10- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد هنداوي، ج1، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2001.

11- ابن قتيبة (أبي محمد بن عبد الله مسلم)، الشعر والشعراء، (د.ط)، عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007.

12- أبي الهلال العسكري، كتاب جمهرة الأمثال، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطاش، ج1، ط2، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

13- أحمد سويلم، شعراء العرب، الأسماء والألقاب والكنى، ط1، دار العالم العربي، القاهرة ،2012.

14- الأصفهاني (أبي الفرج علي بن الحسين)، كتاب الأغاني، تح: إحسان عباس وآخرون، مجلد 6، ط3، دار صادر، بيروت، 2008.

15- الأصمعي (أبي سعيد عبد الملك بن قريب)، الأصمعيات، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط5، بيروت، (د.ت).

16- إيفالد فاجز، أسس الشعر العربي الكلاسيكي، الشعر العربي القديم، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، مؤسسة المختار للتوزيع والنشر، القاهرة، 2008.

17- البخاري(أبو عبد الله محمد بن اسماعيل)، صحيح البخاري، إدارة الطباعة المنيرية، عالم الكتب، بيروت، 1348هـ.

18 - بشرى محمد علي الخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام،(د.ط)، جامعة بغداد، 1981.

19- البغدادي (أبي جعفر محمد بن حبيب)، الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه، تح: سيد كسروي حسن، (د.ط)، (د.ت).

20- بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت).

21- بطرس البستاني ، الشعراء الفرسان، ط1، منشورات دار المكشوف ، بيروت ، 1944.

22- البكري أبي عبيد الأوني وعبد العزيز الميمني، صمت اللآلئ ، (د.ط)، دار الكتب العالمية، (د.ت).

23- التبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب)، شرح: ديوان الحماسة، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، 1986.

24- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ط5، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985.

25- جرجي زيدان، تاريخ، آداب اللغة العربية، تح: شوقي ضيف، دار الهلال ، القاهرة،(د.ت).

26- جليل حسن محمد، قراءات نصية في الشعر الجاهلي، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان – الأردن- ، 2006.

27- الجمحي ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1952.

28- حسن جاد حسن، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، (د.ط)، دار المعارف، مصر، (د.ت).

29- حسن عبد الجليل حسن، الأدب الجاهلي- قضايا وفنون ونصوص-، ط2، مؤسسة المختار، القاهرة-مصر-، 2003.

30- حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي- قضايا وفنون ونصوص-، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001.

31- حنا نصر الحتي، مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

32- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، (د.ط)، دار الجيل، بيروت،(د.ت).

33- رعد أحمد علي الزبيدي، في الشعر الجاهلي، ط2، دار الينابيع، دمشق، (د.ت).

34- زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة، ط2، دار المعارف، مصر، (د.ت).

35- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الجاهلي، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان – الأردن-، 2011.

36- السويدي (أبي الفوز محمد أمين البغدادي)، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، (د.ط)، دار إحياء العلوم، بيروت، (د.ت).

37- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ط24، دار المعارف، القاهرة – مصر-، (د.ت).

38- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الرثاء، ط4، دار المعارف، مصر، (د.ت).

39- صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة لشعرنا القديم، ط1، منشورات إقرأ، بيروت، (د.ت).

40- عبد الحليم حفني، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، (د.ط)، دار الكتاب الحديث، بيروت، 2008.

41- عبد المنعم خفاجي، الشعر الجاهلي، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980.

42- علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

43- علي شلق، الشعر في الشعر العربي، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1984.

44- عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، ط1، دار القلم، بيروت، 1992.

45- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج1، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

46- عيسى ابراهيم السعدي، جماليات الشعر العربي على مر العصور، ط1، دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، 2010.

47- غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي، قضاياه وأغراضه وأعلامه وفنونه، (د.ط)، دار الفكر، دمشق -سوريا-، 2001.

48- فؤاد إفرام البستاني، الشعر الجاهلي(نشأته- فنونه- صفاته)،(د.ط)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1937.

49- قصي الحسين، شعر الجاهلية وشعراؤها، ط1، منشورات المكتبة الحديثة، لبنان، 2006.

50- كامل فرحات صالح، الشعر والدين فاعلية الرمز في الشعر العربي، ط1، دار الحداثة، بيروت-لبنان-،2005.

51- لويس شيخو اليسوعي، أنيس الجلسات في شرح ديوان الخنساء، ط1، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1826.

52- لويس شيخو اليسوعي، شعراء النصرانية في الجاهلية، ج1، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 2002.

53- المبرد (أبي العباس محمد بن يزيد)، الكامل في اللغة والأدب، ج2، المكتبة العصرية، بيروت، 2002.

54- المبرد (أبي العباس محمد بن يزيد)، الكامل في اللغة والأدب، ج4، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت).

55- مجد خضر الحسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، (د.ط)، المكتبة الأزهرية، للتراث، القاهرة، (د.ت).

56- محمد زغلول سلام، مدخل إلى الشعر الجاهلي، (د.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995.

57- المرزباني (أبي عبيد الله محمد بن عمران)، معجم الشعراء، تح: فاروق اسليم، ط1، دار صادر، بيروت، 2005.

58- المرزوقي (أبي علي أحمد بن محمد الحسن)، شرح ديوان الحماسة، مجلد1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

59- مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، 2012.

60- مي يوسف خليف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، (د.ط)، دار غريب للطباعة، القاهرة، (د.ت).

61- نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ط1، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.

62- النووي (أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي)، رياض الصالحين، (د.ط)، دار المعارف، (د.ت).

63- يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي – خصائصه وفنونه-، ط4، مؤسسة الرسالة، لبنان- بيروت، 1983.

المعاجم والقواميس:

64- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، (د.ط)، دار الإسلامية، اسطنبول، 1983.

65- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، ج1، ط1، دار صادر، بيروت، 2000.

66- الخليل بن احمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، مجلد2، ط1، 2003.

67- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، (د.ط)، دار الحديث، القاهرة، 2008.

مذكـــــرات التخرج:

68- سعودي فهيمة، رثاء النفس في الشعر العربي القديم، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2011-2012.

69- عبد القادر شريط، فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس هجري، مذكرة ماستر، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2005-2006.

70- كوثر بوتهلولة، فلسفة الموت والمصير في شعر أبي العتاهية – دراسة فنية موضوعية-، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2010-2011.

مجـــــلات ودوريات:

71- حمودي نوري القيسي، الأشعار الموثبات في الجاهلية، الأقلام –مجلة فكرية عامة، ج4، تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، 1994.

فهرس الموضوعات :

الإهداء /// .....

شكر وعرفان /// .....

بسملة /// .....

المقدمة أ .....

مدخل: الرثاء في الشعر الجاهلي 08 .....

الفصل الأول : مظاهر وتجليات الرثاء في الشعر الجاهلي

1– تعريف الرثاء 19 .....

1– 1– لغة 19 .....

1 –2– اصطلاحا 20 .....

2– نظرة الشاعر الجاهلي لقضية الموت والمصير 24 .....

3– موضوعات الرثاء 33 .....

3–1– رثاء الأهل والأقارب 33 .....

3–2– رثاء النفس 35 .....

3–4– رثاء المدن والمماليك 37 .....

4– خصائص الرثاء 42 .....

4–1– الندب 42 .....

4–2– التأبين 43 .....

4–3– العزاء 45 .....

الفصل الثاني : موازنة بين المهلهل والخنساء في غرض الرثاء (موضوعاتيا)

1– التعريف بالمهلهل بن ربيعة 49 .....

1– 1–إسمه 49 .....

1 –2– حياة الشاعر وخصاله 52

1 – 3– وفاته 54

2– الرثاء عند المهلهل بن ربيعة 57

3– التعريف بالخنساء 68

3–1– اسمها ونسبها 68

3–2– حياتها وإسلامها 69

3–3– مكانتها وشعرها 71

3–4– وفاتها 72

4– الرثاء عند الخنساء 73

5– موازنة بين المهلهل والخنساء في غرض الرثاء (موضوعاتيا) 86

5–1– أوجه التلاقي 86

5–2 أوجه الإختلاف 89

الخاتمة 94

قائمة المصادر والمراجع 98

فهرس الموضوعات ///

الملخص ///

ملخص

1- ملخص المذكرة باللغة العربية .

2- ملخص المذكرة باللغة الفرنسية.

1- ملخص المذكرة باللغة العربية :

يعتبر البكاء غريزة لدى كل البشر إذا فجع أحدهم في عزيز عليه، كذلك نجد الشاعر ينفس عن كربه و ألمه بشعره ، وهذا ما يعرف بغرض الرثاء و الذي كان من أهم أغراض الشعر في العصر الجاهلي ، ومن هنا جاء عنوان هذه الدراسة "**الرثاء بين المهلهل بن ربيعة و الخنساء –دراسة موضوعاتية–**"، حيث قمنا من خلال هذه الموازنة بالتعرف على غرض الرثاء وموضوعاته وخصائصه، ثم تعرضنا لفن الرثاء لدى كلا الشاعرين، بعدها عرجنا إلى دراسة تطبيقية قمنا من خلالها بموازنة بين بعض النماذج الشعرية لكلا الشاعرين وذلك في غرض الرثاء بالتحديد ، وقد خلصنا في النهاية إلى أن **المهلهل بن ربيعة** كان رثاؤه لأخيه **كليب** ثائرا و ساخطا على ما أصابه وإصراره على الأخذ بالثأر وتهديده ووعيده لخصومه وهذا مالمسناه في أشعاره من حيث القيم التعبيرية و الشعورية والجمالية.

– أما **الخنساء** فكان رثاؤها لأخيها **صخر** هادئا مليئا بمرارة الفراق والحزن فكانت تبكي في هدوء بدموع حارقة تشق قلبها الضعيف، ومن خلال هذه الدراسة استطعنا أن نلمس صدق مشاعر من سبقنا، فكان كل منهما يمثلان رمزا للوفاء الأخوي وكان شعرهما ترسيخا لشخصية المرثي.

الكلمات المفتاحية: الرثاء، الرثاء عند **مهلهل بن ربيعة** ، الرثاء عند **الخنساء،**

موازنة بين **المهلهل بن ربيعة** و **الخنساء** في غرض الرثاء، موضوعاتيا.

2- ملخص المذكرة باللغة الفرنسية :

Pleurer est un instinct chez tout les êtres humains, il arrive que l'un deux chagriné pas une perte d'un proche ou d'une personne chère. Ainsi le poète inspire ses angoisses et douleurs pas ses poésies connues « Elégies Funèbres ».

L'élégie est hautement classé avant la naissance de l'islam.

Entre: **EL-MOUHALHIL IBN RABIAA** et **EL-KHENSA,** l'étude nous emmenait à différencies l'inspiration de chacun l'élégie chez les deux poètes n'est pas la même.

EL MOUHALHIL son élégie était pour son frère **KOULAIB** revaltant plein de vengeance et menaces contre les tueurs de son frère.

Toudisque **EL-KHENSA** pleurait son frère **SAKHR** tué dans une w « RAZIA », son élégie était calme plein d'amèrement de séparation et de chagrin de larmes de tristesse transperçaient son cœur fragile.